موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

تعليقات

الشيخ عبد الرّزّاق بن عبد المحسن العباد البدر

علىٰ رسالة

الدين الصحيح يحل جميع المشاكل

تصنيف

الشيخ العلاَّمة عبد الرَّحمٰن بن ناصر السعدي

رحمه الله تعالىٰ

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد؛ فهٰذه رسالةٌ قيّمةٌ نافعة، عنوانها: (الدِّين الصحيح يحل جميع المشاكل) للعلامة عبد الرَّحمٰن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفّىٰ سنة ١٣٧٦هـ.

وهٰذه الرِّسالة عظيمة الفائدة، والحاجة إلىٰ الوقوف علىٰ مضامينها ماسَّة لأسباب عديدة:

السبب الأول: أنَّ قراءة هٰذه الرسالة نافعة جدًّا في باب إدراك حُسْنِ هٰذا الدين، وكماله، ووفائه بجميع المطالب، وأنَّهُ دينٌ كامل؛ فيه تبيان كُلِّ شيء، وفيه حلُّ جميع مشكلات الناس، وفيه تحقيق مصالحهم، وفيه درء المفاسد والشرور عنهم، وفيه فوزهم ونجاتهم ونيلهم لرضا ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السبب الثاني: أنَّ هٰذا الكتاب من الأمور التي تزيد الإيمان وتقوِّيه، لأنَّ المسلم مما يزيد إيمانه قوةً ومما يزيده تمسُّكًا بهٰذا الدين: معرفته بمحاسن الدين، ومكانة الدين العظيمة ووفائه بجميع المطالب.

السبب الثالث: أنَّ مؤلف هٰذا الكتاب إمام محقِّق، وعلم مدقق، وفقيه مربٍّ، وله الباع الواسع واليد الطولىٰ في الفقه والتفسير.. وغير ذلك من علوم الشريعة.

السبب الرابع: أنَّ هٰذا الكتاب يعطي حلولًا شرعيّة مُستمدَّة من الكتاب والسنة لجميع المشكلات؛ بوضع الأصول العامَّة لذلك، وعرض بعض النَّماذج لمشكلات يبيِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ حلَّها في ضوء كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه.

السبب الخامس: أنَّ من الأمور المؤسفة أن بعض الناس يبحث أو يذهب في حل المشكلات شرقًا وغربًا طلبًا لحلِّها دون إقبالٍ منه علىٰ كتاب الله وسنه نبيِّه ﷺ؛ وفيهما الوفاء والكفاية، وفيهما الشفاء والغُنية.

إلىٰ غير ذلك من الأسباب التي تدلُّ علىٰ مكانة هٰذا الكتاب القيِّمة مع صِغَرِ حجمه، إلَّا أنَّه كتابٌ عظيم نافع، ونرجو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعنا بما حواه هٰذا الكتاب من علم وخير وفائدة، وأن يجزي مؤلفه الإمام عبد الرَّحمٰن بن ناصر السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ خير الجزاء.

ونشرع الآن في القراءة في هٰذا الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ العلامة عبد الرَّحمٰن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في كتابه: «الدين الصحيح يحل جميع المشاكل»:

الحمد لله وأصلي وأسلم علىٰ محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فهٰذه كلمات تتعلق بموضوع الدين الإسلامي، وأنه يهدي للتي هي أقوم وأصلح، ويرشد العباد في عقائدهم وأخلاقه ومعاملاته وتوجيهاته وتأسيساته إلىٰ ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وبيان أنه لا سبيل إلىٰ إصلاح شيء من أمور الخلق الإصلاح التام إلا به، وبيان أن جميع النّظم المخالفة لدين الإسلام لا يستقيم بها دين ولا دنيا إلا إذا استُمدت من تعاليم الدين.

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بحمد الله عَزَّوَجَلَّ والصلاة والسلام علىٰ رسوله ﷺ، ثم حدَّد مضمون الكتاب بشكلٍ عام فقال: (هٰذه كلمات تتعلق بموضوع الدين الإسلامي، وأنه يهدي للتي هي أقوم وأصلح، ويرشد العباد في عقائدهم وأخلاقه ومعاملاته وتوجيهاته وتأسيساته إلىٰ ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم) فهٰذا محتوىٰ الكتاب ومضمونه بشكل عام، يبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ فيه أن الدين الإسلامي في **عقائده** التي هي أصحُّ العقائد وأكملها وأعظمها، **وأخلاقه** التي هي أطيب الأخلاق وأزكاها، **ومعاملاته** التي هي أحسن المعاملات وأفضلها، **وتوجيهاته** التي هي أَسَدُّ التوجيهات، **وتأسيساته** التي يُبنىٰ عليها كل خير ويؤسَّس عليها كل فضيلة، وهي أكمل أساس لأعظم بناء؛ أساسٌ شامخ مبنيٌّ علىٰ أصل راسخ= فالإسلام بعقائده وأخلاقه ومعاملاته وتوجيهاته وتأسيساته أرشد العباد إلىٰ ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم.

(في معاشهم): أي في هٰذه الحياة الدنيا.

(وفي معادهم): أي يوم يلقوا الله عَزَّوَجَلَّ يوم الجزاء والحساب.

قال: (وبيان أنه لا سبيل الىٰ إصلاح شيء من أمور الخلق الإصلاح التام إلا به)؛ من مقاصد تأليف هٰذا الكتاب: أن يبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنه لا سبيل إلىٰ إصلاح شيء من أمور الخلق الإصلاح التام إلا به، ولنتأمل هٰذا التأصيل العظيم: (لا يمكن إصلاح شيء من أمور الخلق الإصلاح التام إلا به)؛ وتُعقد أحيانا مؤتمرات لحل بعض المشكلات لا يُقرأ فيها آية من كتاب الله ولا حديثًا من رسول الله ﷺ، ويطلب مع ذلك حلًّا قويمًا للمشكلة.

قد قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا سبيل إلىٰ إصلاح شيء من أمور الخلق الإصلاح التام إلا به) أي بدين الإسلام؛ دين الله جل وعلا، الذي فيه صلاح البشرية وفلاحها.

من مقاصد هٰذا الكتاب في التأليف: (بيان أن جميع النظم المخالفة لدين الإسلام لا يستقيم بها دين ولا دنيا إلا إذا استُمدت من تعاليم الإسلام) إذا كانت مستمدة من تعاليم الإسلام حقَّقت المصالح وحل المشكلات، أما ما لم تكن مستمدة من كتاب الله وسنه نبيه ﷺ فإنه لا يستقيم بها دين ولا دنيا، فهٰذه مقاصد هٰذا الكتاب وتفاصيل هٰذه المقاصد تأتي مفصَّلة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهٰذا الذي قلناه قد برهنت المحسوسات والتجارب علىٰ صدقه وصحته كما دلَّت الشرائع والفِطر والعقول السليمة علىٰ حقيقته، فإن الدين كله صلاح وإصلاح وكله دفع للشرور والأضرار، وكله يدعو إلىٰ الخير والهدىٰ ويحذِّر من الشر وأنواع الردىٰ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن هٰذا الذي ذكره من أن الدين الإسلامي فيه الوفاء بحل جميع المشكلات وأنه الدين الذي يهدي للتي هي أقوم ويرشد للتي هي أصلح بعقائده العظيمة وعباداته الكاملة وأخلاقه الفاضلة ومعاملاته الطيبة وتأسيساته النافعة وتوجيهاته المفيدة؛ فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (برهنت) علىٰ ذلك ودلَّت عليه (المحسوسات والتجارب..، كما دلَّت الشرائع والفطر والعقول السليمة علىٰ حقيقته) يعني كما أن هٰذا عُرف صحته بالنقل، وعُرف أيضًا صحته بالفطرة السَّليمة، أيضًا التجربة والواقع يشهد لذلك، بمعنىٰ أن كثيرًا من المشاكل طُلب حلُّها بغير الكتاب والسنة فلم يظفر أهلها بحل سليم، ولما رجعوا إلىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ وجدوا الشفاء.

وهٰذا كما أنه يُعرف في المشاكل العامة؛ فإنه كذلك يعرف ويدرك في مشاكل الأفراد، فكثيرًا ما يقع للإنسان مشكلات يبحث -بسبب قصور فهمه وقلة علمه وشدة مشكلته- عن حلول لا تكون شرعية ويمضي مع تلك الحلول فيجد أنها لم تزد الأمر إلا إشكالًا، ولم تزد مصيبته إلا وبالًا، فيرجع ويجد أنَّ حلَّ مشكلته في الإسلام.

مثل: من يقع في مآزق مالية ربما توهَّم أنَّ حل مشكلته لا يكون إلا في الدخول في بعض المعاملات المحرمة، وكثيرًا ما يقع أناسٌ في مثل هٰذا؛ فيدخل إما في ربًا أو نحوه ومع الأيام يتبيَّن له أن مشكلته لم تزدد إلا تعقيدًا، بينما الحلول الشرعية لحل مشكلة الفقر؛ مشكلة الغنىٰ ؛ مشكلة المرض؛ كثيرًا ما يدخل أناسٌ في حل مشكلة المرض بأمورٍ محرمة تزيد الأمر تعقيدًا، وتزيد الإشكال إشكالًا، ولهٰذا سيأتي عندنا في التفاصيل حديثٌ نافعٌ جدًّا:

كيف أن الإسلام يحل مشكلة الفقر؟!

كيف أن الإسلام يحل مشكلة المرض؟!

ما هي توجيهات الإسلام في مثل هٰذه المشاكل؟

سيمر معنا في هٰذا الكتاب كلام عظيم في حل مشكلة الفقر، ليت كل إنسان، كل مسلم ابتلي بهٰذه المشكلة أن يقرأه؛ ليرىٰ الحل الشافي لمشكلته، والعلاج المُسدَّد الناجع لمصيبته، وهكذا المشاكل الأخرىٰ، فتجد كثير من الناس بسبب الجهل وقلة الدراية والبصيرة بدين الله تبارك الله تعالىٰ يذهب مذاهب شتىٰ في حل مشكلته، ويُعرِض عن الحل الأسلم والسبيل الأقوم؛ وهو ما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾[الإسراء].

ووصف جلَّ وعلا الكتاب بأنه تبيانٌ لكل شيء، ومع ذلك فكثير من المسلمين لا يرجع إليه ولا يعوِّل عليه لأسباب كثيرة أعظمها: كثرة الجهل وقِلة المعرفة ودروس العلم وضعف التفقُّه في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتضح ما قعَّده الشيخ وأصَّل له في هٰذا التقديم بالأمثلة والنماذج العديدة التي سيعرضها ويُبيِّن من خلالها حل الإسلام لجميع المشاكل.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعند عرض بعض النماذج من تعليماته وتوجيهاته يظهر لكل عاقل منصف صحة هٰذا ؛ وأن الخلق كلهم مضطرون إليه، وأنهم لا يستغنون عنه في حالة من أحوالهم، ذلك بأن الدنيا كلها قد جاشت بمشكلات الحياة، والبشر كلهم يتخبَّطون في دياجير الظلمات فيهتدون من وجه واحد ويضلون من وجوه أخرىٰ وقد يستقيم لهم أمر من بعض وجوه ويقع الإنحراف في بقية أنحائه وهٰذا ناتج من أحد أمرين:

إما جهل بما دلَّ عليه الدين وما أرشد إليه.

وإما مكابرة وغي ومقاصد سيئة وأغراض فاسدة حالت بينهم وبين الصلاح الذي يعرفونه كما هو الواقع كثير .

قال: (وعند عرض بعض النماذج من تعليماته وتوجيهاته يظهر لكل عاقل منصف صحة هٰذا) أي كما يقال بالمثال يتضح المقال، فبعرض بعض النماذج لمشكلات يبين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حل الإسلام لها الحل الأوفىٰ والحل الأقوم والأسلم بما يحقق للبشرية راحتها وعِزّها وفلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

وسيعرض رَحِمَهُ اللَّهُ نماذج تتعلق بالعقيدة، وتتعلق بالمعاملات، وتتعلق بالمصائب التي يُبتلىٰ بها كثير من الناس، ثم يوضح بشكل مفصَّل حل الإسلام لتلك المشكلات، ويبيّن أيضًا أن ما يصير إليه كثير من الناس من طلبٍ وبحثٍ لحل تلك المشكلات بغير الدين لا يصلون من ورائه إلىٰ طائل ولا إلىٰ ثمرة نافعة مفيدة؛ بل لا يزداد الإشكال بتلك الحلول إلا إشكالًا.

قال: (وأنَّ الخلق كلهم مُضطرون إليها) مضطرون إلىٰ هٰذه الحلول الإسلامية المُسدَّدة المستمدة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، (وأنهم لا يستغنون عنه في حالة من أحوالهم).

ثم بين رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ واقع الناس وكثرة المشاكل؛ قال: (ذلك بأن الدنيا كلها قد جاشت بمشكلات الحياة) ومعلومٌ أن الدنيا ميدان جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ميدان ابتلاء وامتحان، كما أن من الناس ناسًا يُبتلون بالمرض فإن غيرهم ابتلاؤهم يكون بالصحة، والصحة ابتلاء والمرض ابتلاء، وكما أن أناسًا يبتلون بالفقر فإن غيرهم يُبتلىٰ بالغنىٰ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء:٣٥].

فالحياة كلها ميدان ابتلاء، ولهٰذا لا يزال الإنسان يواجه أمورًا وأمورًا يبحث عن حلولٍ لها والموفَّق من عباد الله من إذا نابته مشكلة أو عرض له عارض فزع إلىٰ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فيهتدي إلىٰ ما فيه الخير والفلاح «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي».

قال: (والبشر كلهم يتخبَّطون في دياجير الظلمات) أي مشيهم وسيرهم في ظلمات إلا من أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنور العلم، ولهٰذا فإن العلم المُستمد من كتاب الله جل وعلا وسنة نبيه ﷺ يعد نورًا وضياءً

لصاحبه؛ فالعلم نور، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾[الشورىٰ:٥٢].

(والبشر كلهم يتخبَّطون في دياجير الظلمات فيهتدون من وجه واحد ويضلون من وجوه أخرىٰ، وقد يستقيم لهم أمر من بعض وجوه ويقع الإنحراف في بقية أنحائه) وهٰذا يصور فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحلول التي يُنشؤها الناس ويخترعونها معرضين عن الكتاب والسنة، فيقول: هٰذه الحلول قد تعالج المشكلة من وجه ولكنها تُدمِّر من جهات، وتفسد من جهات، وتضر من جهات، ولا يكفي الإنسان حلًّا لمشكلته أن يحلها من جهة ويهدم من جهات كثيرة.

فليس حلًّا لأرق الإنسان تعاطي أمورًا تُغيِّبُ عقله.

وليس حلًّا لغموم الإنسان وهمومه فعل ما يكون به خروجه من هٰذه الدنيا.

ليس حلًّا لمرض الإنسان تعاطي أشياء تعالج المرض المعين الذي هو مصاب به وتجره إلىٰ أمراض عديدة من جهة أخرىٰ.

فالحلول التي يصل إليها هؤلاء الذين يتخبطون في دياجير الظلمات تحل الإشكال من جهة وتعقِّد الأمور وتوقع في إشكالات كثيرة من جهة أخرىٰ، لماذا؟

قال: (وهٰذا ناتج من أحد أمرين: إما جهلٌ بما دلَّ عليه الدين وما أرشد إليه، وإما مكابرة وغي) وهنا يبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الخلل الذي يقع في كثير من الناس والإعراض عن حلول الإسلام القويمة المباركة يرجع إلىٰ سببين:

الأول: الجهل بدين الله.

و الثاني: المكابرة والغي.

وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في مدح رسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾[النجم]

(ما ضلَّ) إثباتٌ لكمال العلم، (وما غوىٰ) إثباتٌ لكمال العمل، وإذا اجتمعا هٰذان الأمران للعبد استقامت حاله.

قد قال عليه الصلاة والسلام في وصف الخلفاء الراشدين: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» الرشاد والهداية، الرشاد ضده الغواية، والهداية ضدها الضلال، الضلال فساد العلم، والغواية فساد العمل، ولهٰذا انحراف الناس إنما يكون من هاتين الجهتين أو من جهة واحدة منهما، إما فساد العلم أو فساد العمل أو كلاهما، ليس بالضرورة أن يكون الفاسد لا علم عنده، قد يكون عنده علم لكنه غاوي، في غواية؛ عنده علم بالخطأ والمخالفة لكن فيه غواية؛ أي عمله فاسد مع علمه بفساده، ولهٰذا الفساد الذي يكون في الناس إما مرجعه إلىٰ الجهل أو مرجعه إلىٰ الغواية أو مرجعه إلىٰ كلا الأمرين: جهل وغواية، فقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾[الصف:٩] الهدىٰ: العلم النافع، ودين الحق: العمل الصالح، وكان من دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم إذا أصبح: «اللهم إني أسألك علمًا نافعًا وعملًا صالحًا ورزقًا طيبًا».

قال:

ولهٰذا ينبغي أن نذكر بعض مشاكل الحياة المهمة مثل مشكلة الدِّين، ومشكلة العلم، والغنىٰ والفقر، والصحة والمرض، والحرب والسلم، والاجتماع والافتراق، والمحاب والمكاره، وغير ذلك مما اختلفت فيها أنظار الناس وتوجيهاتهم وما سلكه الدِّين الإسلامي فيها من المسالك الصالحة السديدة، وما أولاه نحوها من المنافع التي لا تعد ولا تحصىٰ.

بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سيذكر في هٰذا الكتاب نماذج لمشكلات متنوعة منها ما يتعلق بالدين، بالعلم، بالصحة، بالفقر، بالمحاب، بالمكاره، بغير ذلك، ويَعْرِض المشكلة، يَعرِض أفهام الناس في حل المشكلة، والآراء التي تُذكر حلًّا للمشكلة، ثم يبين أن الحل لها لا يكون إلا بالإسلام، وبدأ بأهم الأمور وأعظمها: «الدين والعقيدة».

وبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ كيف أن الذين أرادوا البحث عن عقيدة تطمئن بها قلوبهم وتسكن نفوسهم بغير الإسلام لم يجدوا إلا الحيرة والضَّياع والضلال، والآن بدأ بالمشكلة الأولىٰ وأخذ يفصِّل مبينًا ما يتعلق بها.

موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المشكلة الأولى: مشكلة الدين والعقيدة.

وهٰذه المشكلة أهم مشاكل الحياة وأعظمها، وعليها تنبني الأمور كُلُّها، وبصلاح الدين أو فساده أو عدمه تتوقف جميع الأشياء، فقد تفرَّق فيها البشر وسلكوا في دينهم وعقائدهم طرقا شتىٰ، كلها منحرفة معوجة ضارة غير نافعة إلا من اهتدىٰ إلىٰ دين الإسلام الحقيقي، فإنه حصلت له الاستقامة والخير والراحة من جميع الوجوه.

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهٰذه المشكلة ما يتعلق بالدين والعقيدة، وبيَّن أنَّ هٰذا أعظم أمر، وأجلّ مقصد، وأكبر مطلب، وأن صلاح الأمور وفسادها متوقفة علىٰ هٰذا الأمر لأنه هو الأساس الذي عليه تُبنىٰ الأعمال والطاعات والعبادات، والأساس إذا فسد؛ فسد ما بُني عليه، وإذا انهار الأصل انهار ما فوقه، ولهٰذا أهم ما ينبغي أن تتوجه له العناية إصلاح الأساس ليكون قيام البناء علىٰ أساس سليم لا أن يكون قائمًا علىٰ شفا وعلىٰ هلكة وعلىٰ أصل منهار؛ بل يعمل العبد علىٰ تقوية الأساس وتمكينه.

ويذكر هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحلول التي جاء بها الناس في هٰذا الباب وكيف أنها لم يصلوا من خلالها إلا الضياع والضلال إلا من أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالاهتداء إلىٰ هٰذا الدين فاستقامت حاله وتحققت له الراحة والخيرية من جميع الوجوه.

المثال الأول: من أمثلة الضياع في باب العقيدة قال:

فمن الناس من تلاعب بهم الشيطان فعبدوا غير الله من الأشجار والأحجار والصور والأنبياء والملائكة والصالحين والطالحين، مع اعترافهم بأن الله ربهم ومالكهم وخالقهم وحده لا شريك له، فاعترفوا بتوحيد الربوبية؛ وانحرفوا عن توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله بالعبادة، وهؤلاء هم المشركون علىٰ اختلاف مذاهبهم وتباين طوائفهم، وقد دلت الكتب السماوية علىٰ شقائهم وهلاكهم، واتفق جميع الرسل علىٰ الأمر بتوحيد الله والنهي عن الشرك وأن من أشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار كما دلت العقول السليمة والفِطر المستقيمة علىٰ فساد الشرك والتعبد للمخلوقات والمصنوعات، فالشرك باطل في الشرع فاسد في العقل؛ عاقبة أهله الهلاك والشقاء.

هٰذا نوع ومثال للحلول الفاسدة في باب العقائد وفي باب الدين؛ وهو ما تلاعب به الشيطان في عقول كثير من الناس فأوصلهم الىٰ عبادة غير الله، والتعلق بأحجارٍ وأشجارٍ وأضرحةٍ وقبابٍ ونحو ذلك؛ يُنْزِلون بها حاجاتهم ويتوجهون إليها في رغباتهم وطلباتهم، ويصرفون إليها نذورهم وقرابينهم وقُرُباتهم، ويتوجهون إليها في العبادة وغير ذلك مما هو حقٌّ لله ﷻ، وكل ذالكم يمارسه هؤلاء ظنًّا منهم أنهم علىٰ شيء وأنهم علىٰ دين صحيح، ولهٰذا تعجب غاية العجب في تواصي هؤلاء الذين يمارسون هٰذا الشرك والضلال والضياع؛ تواصيهم بالصبر عليه، عندما تتوجه إليهم الدعوات الصادقة بالحجج البينة الناصعة ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾[ص] ويقولون متفاخرين ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾[الفرقان:٤٢] يعنى لولا أننا كنا متحلين بالصبر وإلا لتخلينا عن هٰذه الآلهة، وصل بهم الحد إلىٰ هٰذه الدرجة، تأتيهم الحجج البينة والدلائل الناصعة ويأتيهم بها أشرف خلق الله؛ رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ويسمعون كلام رسل الله بحجج بينات ومع ذلك يقيمون علىٰ الشرك هٰذه الإقامة ويتواصون علىٰ الصبر عليه، فعبدوا غير الله من الأشجار والأحجار والصور والأنبياء والملائكة والصالحين والطالحين، كل هٰذا وُجد، ولم يوجد بشكل قليل بل أكثر البشرية علىٰ ذلك ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾[يوسف:١٠٣].

(مع اعترافهم بأن الله ربهم ومالكهم وخالقهم وحده لا شريك له، فاعترفوا بتوحيد الربوبية). إذا سُئلوا من خلقكم؟ من ربكم؟ من مدبر شؤونكم؟ من الذي تفرد بالإحياء والإماتة؟ يقولون: الله، ومع هٰذا الاعتراف يعبدون معه غيره ويتجهون فى العبادة إلىٰ سواه، ويدعون عبادًا أمثالهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾[الأعراف:١٩٤].

قال: (مع اعترافهم بأن الله ربهم ومالكهم وخالقهم وحده لا شريك له، فاعترفوا بتوحيد الربوبية؛ وانحرفوا عن توحيد الألوهية، الذي هو إفراد الله بالعبادة، وهؤلاء) يعني أصحاب هٰذا الحل وأصحاب هٰذا التوجه (هم المشركون علىٰ اختلاف مذاهبهم وتباين [طرائقهم]).

والشرك طرائق شتىٰ، منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ولأهل هٰذا المسلك معبودات كثيرة يتوجهون إليها ويصرفون لها العبادة.

قال: (واتفق جميع الرسل علىٰ الأمر بتوحيد الله والنهي عن الشرك) هٰذا أمر اتفق عليه جميع النبيين ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الزخرف]؛ فالرسل كلهم متفقون علىٰ إبطال الشرك وتقرير التوحيد، وأن من أشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

قال: (كما دلت العقول السليمة والفطر المستقيمة علىٰ فساد الشرك) فالشرك كما أنه فاسدٌ نقلًا بالأدلة النقلية؛ فإنه فاسدٌ فطرة وعقلًا، فالفطرة السليمة تدل علىٰ فساد الشرك والعقل المستقيم أيضًا يدل علىٰ فساده، والشرك أمرٌ طارئ علىٰ الفِطر، كما قال الله جلَّ وعلا في الحديث القدسي: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ ، فَأَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» وفي الحديث الآخر يقول عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ».

قال: (كما دلت العقول السليمة والفِطر المستقيمة علىٰ فساد الشرك والتأله والتعبد للمخلوقات والمصنوعات، فالشرك باطل في الشرع فاسد في العقل، عاقبة أهله الهلاك والشقاء) وكما عرفنا الشرك جعله كثير من الناس بل أكثر الناس علىٰ وجه الأرض في قديم الزمان وحديثه حلًا للمشكلة في باب الدين، يتوجهون إلىٰ أمور وأعمال هي شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهٰذا مثال لحل المشكلة في باب الدين، حلها بالشرك والعياذ بالله.

الحل الثاني قال:

ومن الناس من آمن ببعض الرسل والكتب السماوية دون بعض مع أنَّ الرسل والكتب يصدق بعضها بعضا، ويوافق بعضها بعضا، وتتفق في الأصول الكلية فصار هؤلاء ينقض تكذيبُهم تصديقهم ويُبطل اعترافهم ببعض الأنبياء وبعض الكتب السماوية تكذيبَهم للآخرين من الرسل، فبقوا في دينهم منحرفين وفي إيمانهم متحيرين وفي علمهم متناقضين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾[النساء].

فحكم بالكفر الحقيقي لأنه عرف أن دعواهم للإيمان دعوىٰ غير صحيحة، ولو كانت صحيحة لآمنوا بجميع الحقائق التى اتفقت عليها الرسل ولكنهم ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾[البقرة:٩١] ولهٰذا دعواهم للإيمان دعوىٰ كاذبة، فقال عنهم عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[البقرة].

هٰذا حلٌ آخر توصلت إليه بعض العقول السقيمة في باب الإيمان والدين والاعتقاد، وأن من الناس من آمن ببعض الرسل والكتب السماوية دون بعض، وسيذكر بعض الأدلة علىٰ ذلك، فآمن ببعض دون بعض، مع أن الرسل والكتب يصدق بعضها بعضا ويوافق بعضها بعضا وتتفق في الأصول الكلية كما قال عليه الصلاة والسلام: «نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد وأمهاتنا شتىٰ» أي عقيدتنا واحدة وأصولنا واحدة، أمور الاعتقاد لدىٰ جميع النبيين واحدة، لا خلاف بين نبي وآخر في باب الاعتقاد، ولهٰذا قال أهل العلم: أن العقائد لا يدخلها النسخ» لا في شريعة النبي الواحد ولا أيضًا في شريعة الأنبياء، ليس هناك نسخ للعقائد، العقيدة واحدة، العقيدة من أول الرسل الىٰ خاتم الرسل عقيدة واحدة، والاختلاف إنما يكون في الشرائع ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨] ولهٰذا فإن التكذيب ببعض النبيين أو التكذيب ببعض كتب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المنزَّلة تكذيب بجميع النبيين وتكذيب بجميع الكتب، والكفر بكتاب واحد كفرٌ بالكتب كلها، والكفر بآية واحدة من كتب الله كفرٌ بكتب الله كلها، والكفر بنبيٍّ واحد من أنبياء الله كفرٌ بجميع النبيين، والتكذيب لنبي واحد تكذيب لجميع النبيين، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[الشعراء] وهم كذبوا نوح لكن التكذيب لنبي واحد تكذيب للجميع، لأن عقيدتهم واحدة ودينهم واحد وأصولهم واحدة؛ فالتكذيب بواحد منهم تكذيب للجميع.

قال: (فصار هؤلاء ينقض تكذيبُهم تصديقهم) أي ينقض تكذيبُهم -أي للنبيين- تصديقهم للنبي الواحد، بمعنىٰ أنهم لو كان تصديقهم للنبي الواحد حق وصدق لآمنوا بالجميع لأنهم من مشكاة واحدة وكلهم رسل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(ويُبطل اعترافهم ببعض الأنبياء وبعض الكتب السماوية تكذيبَهم للآخرين من الرسل، فبقوا في

دينهم منحرفين وفي إيمانهم متحيرين) لما بيَّن رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في الأمر الأول فساد ما عليه أهل الشرك بيَّن هنا في الأمر الثاني فساد ما عليه من يزعم الانتساب لبعض الأديان مثل اليهود ومثل النصارىٰ، من يزعم أنه من أتباع عيسىٰ أو من أتباع موسىٰ أو نحو ذلك ثم يكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام وبما جاء به صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكر العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ مناظرة دارت بينه وبين أحد النصارىٰ وعرضها يطول لكنه رَحِمَهُ اللهُ يقول: قلت له: إنكم سببتم رب العالمين سبةً ما سبقكم بها أحد من العالمين، يقول فقال لي: حاشا أن نكون كذلك، قال: إنَّ قولكم: إن محمد ﷺ نبي كاذب فيه مسبة لرب العالمين ما سبقكم بها أحد من العالمين.

قال: وكيف ذاك ؟!

قال ابن القيِّم: إنَّ محمدا ﷺ منذ بعثه الله ودينه لا يزال في رِفعة وفي علو، وكل من أراد أن يقاوم هٰذا الدين لا يؤول أمره إلا إلىٰ اضمحلال وسفول، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ قال: فقلت له: إما أن تقولوا: إن الله عالمٌ به مطَّلعٌ عليه أو ليس عالمًا، إن قلتم ليس عالمًا فهٰذه سبةٌ ما سبقكم بها أحد من العالمين.

وإنْ قلتم: إنه عالم به فإما أن يكون قادرًا عليه وعلىٰ حجزه كما قال: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الحاقة]. وواصل رَحِمَهُ اللهُ في بيان ذلك، فقال النصراني علىٰ إثر هٰذا: حاشا أن نقول إنه نبي كاذب؛ بل إنه نبي صادق وعقلاؤنا يقولون: إنه نبي صادق، وإن أتباعه سعداء، فقلت له: ما الذي يمنعك أن تكون من أتباعه فتظفر بهٰذه السعادة ؟ قال: وكذلك موسىٰ نبي صادق وعيسىٰ نبي صادق وأنا من أتباع عيسىٰ.

قال: إذا كنت تقول إنه نبي صادق ولا تؤمن به ؛فإنه –أي محمد ﷺ- قد كفَّر من لم يتبعه وقال هو من أهل النار، وجاء له ببعض النصوص كقوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا كان حقًا علىٰ الله أن يدخله النار»، فإذا كنت تقول: إنه نبيٌ صادق فإنه كفَّر من لم يتبعه، فإما أن تعتقد أنه نبي صادق فتتبعه لتسعد وتنجو، وإما أن تنقض هٰذه الدعوىٰ بفعالك، يقول: فقال النصراني: حدثنا في غير هٰذا؛ يعنىٰ انغلق الباب أمامه واتضح الأمر لكنه لا يزال مُصرًا عياذًا بالله علىٰ ما هو عليه من ضلال وباطل.

فالشاهد أن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يبين هنا نوع من الانحراف في باب الاعتقاد، لما بيَّن الانحراف في الشرك بيَّن الانحراف من جهة من يزعمون اتباع بعض الأنبياء أو اتباع بعض الكتب السماوية والكفر ببعضها، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾[الشورى:١٥] ، أي أيَّ كتاب علىٰ أيِّ رسول أنا مؤمن به.

قال: (فبقوا في دينهم منحرفين وفي إيمانهم متحيرين وفي علمهم متناقضين، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

ﭐلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾[النساء]. فحكم بالكفر الحقيقي) حكم عليهم بالكفر الحقيقي (لأنه عرف أن دعواهم للإيمان دعوىٰ غير صحيحة) لأن الإيمان الصحيح هو الإيمان بالله وبكل ما أمر جلَّ وعلا عباده بالإيمان به، (ولو كانت صحيحة لآمنوا بجميع الحقائق التي اتفقت عليها الرسل ولكنهم ﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾) هٰذا معنىٰ ما جاء في الآية الأولىٰ ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾[النساء:١٥٠] ما البعض الذي يؤمنون به ؟

﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي بما جاء ونزل علىٰ محمد صلوات الله وسلامه عليه، قال: (ولهٰذا دعواهم للإيمان دعوه كاذبة. فقال عنهم عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾[البقرة]).

إذًا هٰذا حل من الحلول الفاسدة في باب الاعتقاد.

الحل الأول: الذي عليه أهل الشرك.

والحل الثاني: الذي عليه أهل الكتاب.

موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

ثم انتقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ إلىٰ ذِكر حل ثالث من الحلول الفاسدة، قال:

ومن الناس طائفة ادعت الفلسفة والعلم بالمعقولات فجاءت بأكبر الضلالات وأعظم المحالات فجحدت الربَّ العظيم وأنكرت وجوده فضلا عن الإيمان بالرسل والكتب وأمور الغيب، وجحدوا آيات الله واستيقنتها أنفسُهم ظلمًا وعلوًا واستكبارا فكذَّبوا بعلوم الرسل وما دلَّت عليه الكتب المنزَّلة من عند الله، واستكبروا عنها بما عرفوا من العلوم الطبيعية وتوابعها، وأنكروا جميع الحقائق إلا ما أدركوه بحواسهم وتجاربهم القاصرة الضيقة بالنسبة إلىٰ علوم الأنبياء، فعبدوا الطبيعة وجعلوها أكبر همهم ومبلغ علمهم واندفعوا وراء ما تقتضيه طبائعهم، ولم يتقيدوا بشيء من الشرائع الدينية ولا الأخلاق الإنسانية، فصارت البهائم أحسن حالًا منهم فإنهم نَضَبَتْ منهم الأخلاق واندفعوا وراء الشهوات البهيمية فلم يكن لهم غاية يرجونها ولا نهاية يطلبونها ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤] فصار المشركون علىٰ شركهم وكفرهم أحسن حالًا منهم وأقلّ شرًّا منهم بكثير، والعجب الكثير أن هٰذا المذهب الخبيث جرف بتياره في الأوقات الأخيرة جمهور البشر لضعف الدين وقلة البصيرة، ولمَّا وضعت له الأمم القوية الحبائلَ والمصائد التي هلك بها الخلق.

ثم ذكر هٰذا المثال الثالث من الحلول الفاسدة وهو: ما ادعته الفلاسفة الذين يدَّعون الفلسفة والعلم بالمعقولات، يقول: (هؤلاء جاءوا بأكبر الضلالات وأعظم المُحالات) وتوصلوا إلىٰ ذلك بالفلسفة بزعمهم، والنتيجة التي توصلوا إليها بالفلسفة: جَحْدُ وجود الله بناءً علىٰ فلسفة مزعومة ومعقولات أو أمور عقلية مُدَّعاة، فتوصلوا إلىٰ جحد الرب وإنكار وجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فضلًا عن الإيمان بالكتب والرسل وأمور الغيب، ولكن هٰذا الجحد كجحد فرعون وآله ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، فهٰذه مكابرةٌ من هؤلاء وجحدٌ لأكبر الحقائق مما هو راسخ في الفِطر السليمة وثابتٌ في العقول المستقيمة.

قال: (وجحدوا آيات الله واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا واستكبارا فكذَّبوا بعلوم الرسل وما دلَّت عليه الكتب المنزَّلة من عند الله، واستكبروا عنها بما عرفوا من العلوم الطبيعية وتوابعها، وأنكروا جميع الحقائق إلا ما أدركوه بحواسهم وتجاربهم القاصرة الضيقة بالنسبة إلىٰ علوم الأنبياء، فعبدوا الطبيعة وجعلوها أكبر همهم ومبلغ علمهم واندفعوا وراء ما تقتضيه طبائعهم، ولم يتقيدوا بشيء من الشرائع الدينية ولا الأخلاق الإنسانية، فصارت البهائم أحسن حالًا منهم فإنهم نَضَبَتْ منهم الأخلاق واندفعوا وراء الشهوات البهيمية فلم يكن لهم غاية يرجونها ولا نهاية يطلبونها) فهٰذا نوع من الحلول التي وُجدت لحل الإشكال في باب الاعتقاد وهو ما عليه أهل الفلسفة الباطلة الذين آلت عقولهم وتوصلت فلسفتهم إلىٰ إنكار وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معتبرين أنَّ هٰذا أعظم حل لهٰذه المشكلة.

لمَّا ذكر هٰذه الحلول الثلاثة الفاسدة الباطلة أخذ أو شرع في بيان ما جاء به الدين الإسلامي في هٰذا الباب الذي هو أعظم الأبواب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أما الدين الإسلامي فقد أخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والظلم والعدوان وأصناف الشرور إلىٰ نور العلم والإيمان واليقين، والعدل والرحمة وجميع الخيرات:

قال الله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[النحل].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة:٣].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام:١١٥] أي كلماته الدينية التي شرع بها الشرائع وسن الأحكام، وقد جعلها الله تامة من جميع الوجوه لا نقص فيها بوجه من الوجوه، صدقًا في إخبارها عن الله وعن توحيده وجزائه وصدق رسله في أمور الغيب، عدلًا في أحكامها وأوامرها كلها عدل وإحسان وخيرات وإصلاح وصلاح، ونواهيها كلها في غاية الحكمة تنهىٰ عن الظلم والعدوان والأضرار المتنوعة.

هنا شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في بيان أن الدين الإسلامي هو الدين الصحيح الذي جاء في جميع الأبواب- باب العقائد وباب العبادات وباب الأخلاق- بالحل الأقوم والسبيل المباركة سواءً في عقائده التي هي أصح العقائد أو عباداته التي هي أكمل العبادات أو أخلاقه التي هي أزكىٰ الأخلاق، وبيَّن أنَّ هٰذا الدين هو الدين الوحيد الذي (أخرج البشرية من ظلمات الجهل والكفر والظلم والعدوان وأصناف الشرور إلىٰ نور العلم والإيمان واليقين والعدل والرحمة وجميع الخيرات) وسيذكر في هٰذا الباب معانٍ عظيمة يبين فيها كمال الدين ووفاءه بجميع المطالب، ولهٰذا سيمر علينا كثيرا في هٰذا الفصل أو في هٰذا الموضع فيقول: فالدين الإسلامي كذا، والدين الإسلامي كذا، والدين الإسلامي كذا...، يذكر محاسن الدين ووفاءه بجميع المطالب وأنه العلم والنور والضياء والعدل والرحمة والحكمة والخير والبركة إلىٰ غير ذلك، وسيأتي عنده تفاصيل جميلة ونافعة في بيان كمال هٰذا الدين لعلنا نؤجل الحديث عنها إلىٰ لقاء الغد بإذن الله تبارك تعالىٰ والله تعالىٰ أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

❁❁❁

أسئلة المجلس الأول

السؤال الأول: كيف تحل المشاكل الناتجة عن سوء الظن ؟

الجواب: سوء الظن إذا كان المراد به الظن برب العالمين فهٰذا باب خطير ومنزلق لأعتىٰ وأشد

أنواع الإنحراف؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ وصف المشركين والمنافقين بذلك قال: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾[الفتح:٦] وجاء الإسلام بالدعوة إلىٰ حسن الظن بالله في كل باب، قد قال الله جلَّ وعلا في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ».

وأما إذا كان في باب الظن في الناس وبناء التعاملات معهم علىٰ الظنون فهٰذا أيضًا باب خطير فى باب الصلات والعلاقات بين الناس، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات:١٢] وكم بُنِيت تعاملات فاسدة علىٰ ظنون خاطئة؟! وكم نجمت من عداوات وشرور بسبب ظنون هاجت في صدر الإنسان فبنىٰ عليها ظلمًا وعدوانًا و أنواعًا من التعاملات.

السؤال الثاني: هل أستطيع أن أقول: أحب محمد ﷺ أشد من حب الرسل ؟

الجواب: محبه النبي عليه الصلاة والسلام ومحبة جميع النبيين عبادة وقُربة يتقرب بها المسلم إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، وهٰذه المحبة مطلوبة وواجبة وهي محبة تابعة لمحبة الله؛ لأن المسلم الذي يُحِبُّ الله جل وعلا يحب كل ما يحبه الله من الأشخاص والأعمال، كما قال نبينا عليه الصلاة السلام في الدعاء الثابت عنه: «**اللّٰهمَّ إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يقربني إلىٰ حبك**».

وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله** -أي محمد ﷺ- **أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**» ولا شك أنَّ لنبينا ﷺ علىٰ أمته حق خاص من حيث محبته وتعظيمه وتوقيره والإتساء به والاقتداء به ﷺ ولزوم نهجه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**».

والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ رسول الله.

المجلس الثاني

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إلٰـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه وأشـهد أن محمدًا عبده ورسوله صلي الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللّٰهمَّ لا علم لنا إلا ما علمتنا، اللهم علّمنا ما ينفعنا، وزدنا علمًا، اللّٰهمَّ إنا نسألك علمًا نافعًـا ورزقًـا طيبًا وعملًا متقبلًا، اللّٰهمَّ أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفه عين، باسم الله توكلنا علي الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أما الدين الإسلامي فقد أخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والظلم والعدوان وأصناف الشرور إلىٰ نور العلم والإيمان واليقين والعدل والرحمة وجميع الخيرات:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[النحل].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩].

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥]، أي كلماته الدينية التي شرع بها الشرائع وسنَّ الأحكام وقد جعلها الله تامة من جميع الوجوه لا نقص فيها بوجه من الوجوه، صدقًا في إخبارها عن الله وعن توحيده وجزائه وصدق رسله في أمور الغيب، عدل في أحكامها وأوامرها، كلها عدل وإحسان وخيرات وصلاح وإصلاح، ونواهيها كلها في غاية الحكمة تنهىٰ عن الظلم والعدوان والأضرار المتنوعة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[المائدة] وهٰذا استفهام بمعنىٰ النفي المتقرر الذي تقرر حدوثه في العقول والفِطر، فما أمر بشيء فقال العقل ليته نهىٰ عنه ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل ليته أمر به، لقد أباح هٰذا الدين كل طيب نافع وحرم كل خبيث ضار ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[الأعراف:١٥٧].

لما أنهىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ذكر ما توصَّلت إليه العقول في باب أو ما سمَّاه بمشكلة الدين والعقيدة، ما توصَّلت إليه العقول من تقريرات فاسدة واعتقادات منحرفة كمن توصَّل إلىٰ اعتقاد الشرك واتخاذ الأوثان وعبادة الأنداد مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو الذين توصَّلوا إلىٰ الإلحاد والزندقة والجحد لوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولشرعه ودينه، أو الذين توصَّلوا إلىٰ التكذيب أو الإيمان ببعض من شرع الله وكفر ببعض وإيمان ببعض الرسل وكفر ببعض، وهٰذه الثلاثة التي ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هي أشهر العقائد المنحرفة في قديم الزمان وحديثه.

ولمَّا أنهىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام علىٰ تلك العقائد وبيان ما اشتملت عليه من باطل وما انطوت عليه من ضلال وزيغ وانحراف ومصادمة للشرع الحنيف والفِطر المستقيمة والعقول السليمة، لما بيَّن ذلك شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في بيان الدين الحق؛ دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي رضية لعباده وشرعه لهم وأذِن لهم به مشتملًا لهم علىٰ كل خير وعدل ورحمة وحكمة وفلاح وسعادة للبشرية في دنياها وأخراها، وهو الدين العظيم الذي رضيه

جلَّ وعلا لعباده ولا يرضىٰ لهم دينًا سواه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[آل عمران:٨٥]، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٩]، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة:٣].

فأخذ يبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مكانة هٰذا الدين العظيمة ومنزلته العليَّة وآثاره المباركة، فقال: (أما الدين الإسلامي فقد أخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والظلم والعدوان وأصناف الشرور إلىٰ نور العلم والإيمان واليقين والعدل والرحمة وجميع الخيرات) فهو دين جاء بالرحمة، وجاء بالحكمة، وجاء بالعدل، وجاء بالإحسان، وجاء بكل خير وفي الوقت نفسه دين حذَّر من كل ضلال وظلم وباطل وعدوان، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يَدُلَّ أمته إلىٰ خير ما يعلمه لهم، وأنْ يُنذرهم شر ما يعلمه لهم» وهكذا الدين الخاتَم؛ دين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، دين مشتمل علىٰ كل خير وفضيلة ومحذِّرٌ من كل باطل ورذيلة.

قال الله تعالىٰ ممتنًا علىٰ عباده بذلك ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[آل عمران:١٦٤].

فهٰذا الدين مِنَّة إلهية وهِبة ربَّانية، فيه إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وفيه تزكيتهم وتعليمهم ما ينفعهم وإصلاح أحوالهم وشؤونهم عقيدةً وعبادةً وخُلُقًا.

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل:٩٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة:٣].

كل هٰذه الآيات تدل علىٰ مكانة هٰذا الدين العظيم، وأنه دين الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ، ودين النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، الدين الذي يهدي للتي هي أقوم، وهو الدين الذي أتمَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده ورضيه لهم دينًا ولا يرضىٰ لهم دينًا سواه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[الأنعام:١١٥] فيه تمام هٰذا الدين وكماله، وأنه دين أتمَّه الله، فأقواله وأخباره كلها صدق لا كذب فيها، وأوامره ونواهيه كلها عدل، قال: (أي كلماته) المراد بـ(كلمات ربك)؛ أي كلماته الدينية، لأن الكلمات عندما تضاف إلىٰ الله:

- تارة يراد بها الكلمات الكونية القدرية.
- وتارة يراد بها الكلمات الشرعية الدينية، فقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن ﴾[يس:٨٢] هٰذه كلمة كونية قدرية ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن ﴾ أن يقول له قدرا ﴿كُن فَيَكُونُ ﴾ والكلمات الدينية هي أوامره ونواهيه، القرآن الكريم من كلمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الدينية المشتمل علىٰ شرع الله ودينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

الذي رضيه لعباده.

قال: (أي كلماتة الدينية التي شرع بها الشرائع وسنَّ الأحكام)، قوله: (التي شرع بها الشرائع وسنَّ بها الأحكام) هٰذا يمكن أن يكون ضابطًا في التمييز بين الكلمات الشرعية والكلمات الكونية، فنقول:

الكلمات الشرعية: هي الكلمات التي شرع الله ﷻ بها الشرائع وسنَّ بها الأحكام.

والكلمات الكونية القدرية: هي الكلمات التي قدَّر بها المقادير وأوجد بها المخلوقات.

هٰذا فرق ما بين الكلمات الكونية القدرية والكلمات الشرعية الدينية.

قال: (وقد جعلها الله تامة من جميع الوجوه لا نقص فيها بوجه من الوجوه) كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥] يوضحهما رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (صدقا في إخبارها عن الله وعن توحيده وجزائه وصدق رسله في أمور الغيب) أي أن جميع الأخبار التي اشتملت عليها كلمات الله ﷻ كلها أخبار صادقة سواء ما يتعلق بالله بذكر أسمائه الحسنىٰ وصفاته العُليا وأفعاله ﷻ العظيمة، أو فيما يتعلق باليوم الآخر والتفاصيل الكثيرة المتنوعة التي ذُكرت عن ذلك اليوم، أو فيما يتعلق بالأخبار عن الملائكة وأوصافهم وأسمائهم وأعدادهم ووظائفهم، أو ما يتعلق بالأخبار عن رسل الله وقصصهم وأخبارهم، فكل الأخبار التي اشتمل عليها القرآن الكريم كلها صدق لا كذب فيها ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء].

(وكلها عدل) ومعنىٰ ذلك أي: أنها عدل في أحكامها؛ الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، أي عدلًا في أحكامها (وأوامرها كلها عدل وإحسان وخيرات وصلاح وإصلاح، ونواهيها كلها في غاية الحكمة تنهىٰ عن الظلم والعدوان والأضرار المتنوعة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]) الآية فيها استفهام، لكن ما معنىٰ هٰذا الاستفهام؟ قال: (وهٰذا استفهام بمعني النفي المتقرر الذي تقرر حدوثه في العقول والفِطر) معني قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ أي لا أحد أحسن من الله حُكمًا، فهو استفهام تقريري للأمر أو لأمر متقرر في الفِطر والعقول، لا أحسن من الله حكما لقوم يوقنون، ومن شواهد ذلك ودلائله العقلية ما أشار إليه بقوله: (فما أمر بشيء فقال العقل ليته نهىٰ عنه ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل ليته أمر به) وهٰذه كلمة نقلها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض كتبه عن أحد الأعراب قيل له: كيف عرفت صحة هٰذا الدين؟ قال: (ما وجدت أمَرَ بشيء فقال: العقل ليته لم يأمر به، ولا وجدته نهىٰ عن شيء وقال العقل ليته نهىٰ عنه) أي أن كل الذي يأمر به خير، يأمر بالعدل، يأمر بالإحسان، يأمر بالمعروف، يأمر بالبر، يأمر بالصدق، يأمر بالوفاء، كل ما يأمر به خير، وكل ما ينهىٰ عنه شر، ينهىٰ عن الفحشاء عن المنكر، عن الكذب، عن الغش، عن الخيانة، عن الفواحش، كل ما ينهىٰ عنه شر، فما أمر بشيء وقال العقل السليم ليته لم يأمر به ولا ينهىٰ عن شيء فقال العقل السليم: ليته لم ينه عنه، فهٰذا من الدلائل علىٰ كمال هٰذا الدين وحُسنه أنه دين عظيم، دين عدل ورحمة وحكمة، دين

صلاح وإصلاح، دين لا يصادم العقول السليمة والفِطر المستقيمة؛ بل جاء بما يتمم العقول لا بما يصادمها، وجاء بما يكمل الفطر لا بما يناقضها، فهو دين لا يناقض الفطرة بل هو دين الفطرة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ﴾[الروم:٣٠] فهو دين الفطرة، وهو دين لا يصادم العقل السليم، وإذا وُجدت مصادمة بين عقل ونقل فهٰذا إما راجع لفساد العقل أو لعدم صحة النقل، أما إذا صحَّ النقل واستقام العقل ليس هناك تصادم.

قال: (لقد أباح هٰذا الدين كل طيب نافع وحرم كل خبيث ضار) فهو دين جاء بإباحة الطيبات وتحريم الخبائث كما قال الله ﷻ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾[الأعراف:١٥٧] فهٰذه كلها أمور تدل علىٰ كمال هٰذا الدين ومكانته العظيمة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهو الدين الذي يوجه العباد إلىٰ كل أمرٍ نافع لهم في دينهم ودنياهم، ويحذرهم عن كل أمر ضار في دينهم ومعاشهم، ويأمرهم عند اشتباه المصالح والمفاسد والمنافع والمضار بالمشاورة في استخراج ما ترجَّحت مصلحته ودفع ما ترجَّحت مفسدته.

من محاسن وكمال هٰذا الدين العظيم أنه دين (يُوجِّه العباد إلىٰ كل أمر نافع لهم في دينهم ودنياهم) فهو دين إصلاح في جانب الدنيا؛ في الحث علىٰ كل ما فيه نفع وفائدة للعبد في دنياه، وأيضًا إصلاح الآخرة؛ ببيان كل عمل صالح يقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وينال به العبد الدرجات العلىٰ في الآخرة.

(ويحذرهم عن كل أمر ضار في دينهم ومعاشهم) الأمور التي تضر العبد في معاشه، في صحته، في بدنه، جاء الإسلام بالنهي عنها، والأمور التي تضر العبد في دينه أيضًا جاء الإسلام بالنهي عنها والتحذير منها، فهو يُصْلِح للعبد دنياه وأخراه.

(ويأمرهم عند اشتباه المصالح والمفاسد والمنافع والمضار بالمشاورة) أي عدم التسرُّع فينظر الإنسان في الأمر الذي أشكل عليه في ضوء قاعدة الشريعة الكلية وهي: «جلب المصالح ودرء المفاسد»، هٰذه قاعدة كلية في شريعة الله، فينظر في الأمر المُشتبه هل هو من قبيل المصالح أو من قبيل المفاسد؟ ويوازن بين الأمور ولا يكون إقدامه علىٰ الأمر إلا بعد تأنٍّ ومشاورة، قال: (بالمشاورة في استخراج ما ترجحت مصلحته ودفع ما ترجحت مفسدته).

قال:

وهو الدين العظيم الشامل الذي أمر بالإيمان بكل كتاب أنزله الله وبكل رسول أرسله الله ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى].

قوله: (وهو الدين العظيم الشامل الذي أمر بالإيمان بكل كتاب أنزله الله وبكل رسول) أي خلافًا لحال من يؤمن ببعض ويكفر ببعض، يؤمن ببعض الكتب ويكفر ببعضها، أو يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض، فالدين الإسلامي فيه الأمر بالإيمان بجميع الكتب المنزلة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ أي بكل كتاب أنزله الله علىٰ أيِّ رسول حتىٰ الكتب التي لم نقف علىٰ أسمائها وعلىٰ شيء من تفاصيلها فإننا نؤمن بها ونعتقد أنها كتب حق وعدل وحكمة ورحمة وصلاح لمن أُنزلت عليهم، وأنَّ من آمن بها سعد ومن كفر بها خاب وخسر، نؤمن بذلك، ونؤمن بأنها وحي الله وتنزيله علىٰ رسله، نؤمن بذلك ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾، وأيضًا نؤمن بجميع المرسلين قال الله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥] والمراد بالتفرقة بأن يؤمن الإنسان ببعض ويجحد بعضًا أو يكذب بعضًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو الدين العظيم الذي شهد الرب العظيم بصحته وكماله، وشهد بذلك الكُمَّل من الخلق وخُلاصتهم ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾[آل عمران].

أيضًا من كمال هٰذا الدين أنه دين عظيم (شهد رب العالمين جلَّ وعلا بصحته وكماله، وشهد بذلك الكُمَّل من الخلق وخلاصَتُهم)؛ أي خلاصة الخلق، صفوة الخلق كما هو مبين في الآية الكريمة التي ساقها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فذكر شهادته هو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وذكر شهادة ملائكته الكرام وذكر شهادة أولي العلم ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ فهٰذه شهادة لله بالوحدانية وشهادة لكمال هٰذا الدين وفضلة وأنه الدين الذي رضيه الله ولا يرضىٰ دينًا سواه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ فهٰذا أمر شهد به رب العالمين وشهد به صفوة الخلق وخلاصَتُهم ولُبُّهم كما هو مبين في هٰذه الآية الكريمة.

قال:

وهو الدين الذي من اتصف به جمع الله لـه جمـال الظـاهر والبـاطن، وكمـال الأخـلاق والأعمـال ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[النساء:١٢٥]، فلا أحسن ممن هو مخلص لله محسن إلىٰ عباد الله، مخلـص لله متبـع لشـريعة الله التـي هـي أحسـن الشـرائع وأعـدل المنـاهج فانصـبغ قلبـه بالإخلاص والتوحيد واستقامت أخلاقه وأعماله علىٰ الهداية والتسديد ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[البقرة].

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهو الدين الذي من اتصف به جمع الله له جمال الظاهر والبـاطن، وكمـال الأخـلاق والأعمال) فهو زينة للعبد، وجمال في ظاهره وباطنه، وفي الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسـلام: «اللّٰهمَّ زيِّنا بزينة الإيمان» وفي القرآن في سورة الحجـرات قـال تعـالىٰ: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[الحجـرات:٧] فهو زينة المرء وجماله، قال تعـالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[الأعـراف:٢٦] فهـو أكمـل زينـة، وأعظـم جمال، وأحسن لباس، وزينة للمرء في ظاهره وباطنه، فظاهر المؤمن أعمـال صـالحة وأخـلاق فاضـلة، وباطنه عقائد صحيحة وأعمال قلبية طيبة من حياء ورجاء ومحبة ورحمـة وغيـر ذلـك مـن أمـور الـدين العظيمة، فهو دين جاء بإصلاح البـاطن والظـاهر، إصـلاح القلـوب والأعمـال ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ والاستفهام هنا كسابقه، اسـتفهام بمعنـىٰ النفـي، أي لا أحسـن دينًـا ممـن أسلم وجهه لله، أي مخلصا له الدين، ومحسـنٌ إلـىٰ عبـاد الله بالمعـاملات الطيبـة والأخـلاق الفاضـلة والآداب الرفيعة (مخلص لله متبع لشريعة الله التي هي أحسـن الشـرائع وأعـدل المنـاهج فانصـبغ قلبـه بالإخلاص والتوحيد واستقامت أخلاقة وأعماله علي الهداية والتسديد) وهٰذه منَّة الله علىٰ من شـاء مـن عباده بتوفيقه لهم أن يبقوا علىٰ هٰذه الفطرة السليمة والصبغة العظيمة كما قـال الله سـبحانه ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[البقرة] والصِبغة هنا: الفطـرة، أي أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فطـرهم وجبلهم علي ذلك وهداهم لذلك ووفقهم له.

قال:

وهو الدين الذي فتح أهله القائمون به المتصفون بإرشاداته وتعاليمه القلوب بالعلم والإيمان والأقطار بالعدل والرحمة والنصح لنوع الإنسان.

قال: (وهو الدين الذي فتح أهله القائمون به المتصفون بإرشاداته وتعاليمه القلوب) فتحوا القلوب بالعلم والإيمان، فتحوا القلوب -أي قلوب الناس- بالعلم والإيمان؛ أي بعلوم هٰذا الدين العظيمة وما يدعو إليه من الإيمان بالله وبكل ما أمر جلَّ وعلا عباده بالإيمان به، وفتحهم للقلوب بما كانوا عليه هُم من لزوم لهٰذا الدين عقيدة وعبادة وخُلُقًا، وتأمَّل هٰذا المعنىٰ في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩] فتحوا (القلوب بالعلم والإيمان والأقطار) أي الأراضي والمدن والديار (بالعدل والرحمة والنصح [لأنواع] الإنسان).

قال:

وهو الدين الذي أصلح الله به العقائد والأخلاق وأصلح به الحياة الدنيا والآخرة وألَّف به القلوب المتشتتة والأهواء المتفرقة.

إذًا هو دين إصلاح، ودين تأليف بين القلوب، ودين نبذ للأهواء والانحرافات؛ بل ليس هناك ما يجمع الكلمة ويؤلف بين القلوب إلا هٰذا الدين ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾[الحجرات:١٠] يُحقق التآخي بين أهله «مثل المؤمنون في توادهم وتراحمهم مثل الجسد»، «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» فهو دين يؤلف بين القلوب المتنافرة والقلوب المتعادية ويزيل الشرور والضغائن والأحقاد والحسد والظلم والعدوان، كل هٰذه المعاني تجد أن الإسلام يطفئ جمرتها ويسعىٰ في إزالتها من النفوس والقلوب لتبقىٰ قلوبًا نقية ونفوسًا صافية، محبة للخير، رحيمة بالخلق، حسنة في التعامل إلىٰ غير ذلك من كمالات هٰذا الدين وجماله العظيم.

قال:

وهو الدين العظيم المحكم غاية الإحكام في أخباره كلها، وفي أحكامه، فما أخبر إلا بالصدق والحق، ولا حكم إلا بالحق والعدل، فلم يأت علم صحيح ينقض شيئًا من أخباره ولا حكم أحسن من أحكامه، وأصوله وقواعده وأسسه تساير الزمان السابق واللاحق، فحيثُما طُبِّقت المعاملات المتنوعة بين الأفراد والجماعات في كل زمان ومكان علىٰ أصوله تم بها القسط والعدل والرحمة والخير والإحسان لأنها تنزيل من حكيم حميد ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[هود]، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾[فصلت]، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[الحجر] حافظون لألفاظه عن الزيادة والنقص والتغيير، وحافظون لأحكامه عن الانحراف والنقص؛ بل هي في أعلىٰ ما يكون من العدل والاستقامة والتيسير.

كذلك من كمال هٰذا الدين العظيم أنه دين مُحكم غاية الإحكام ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[هود:١] محكم غاية الإحكام، ومعني (أُحۡكِمَتۡ) أي جاءت علىٰ أتقن ما يكون وأتم ما يكون وأحسن ما يكون ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قال: (وهو الدين العظيم المحكم غاية الإحكام) وإحكام هٰذا الدين هو من جهة الأخبار ومن جهة أيضًا الأوامر، فأخباره كما مرَّ معنا كلها صدق وأوامره كلها عدل، فهو محكم في أخباره محكم في أوامره، قال: (غاية الإحكام في أخباره كلها وفي أحكامه) ثم فصَّل ذلك قال: (فما أخبر إلا بالصدق والحق، ولا حكم إلا بالحق والعدل، فلم يأت علم صحيح ينقض شيئًا من أخباره) يعني لا يوجد علم صحيح يُكذِّب شيئًا من أخبار القرآن الكريم، ولا أيضًا يوجد علم صحيح ينقض أحكامه.

قال: (فلم يأت علم صحيح ينقض شيئًا من أخباره، ولا حكم أحسن من حكمه، أصوله وقواعده وأسسه تساير الزمان السابق واللاحق) أي ليس في الأزمنة ولا علىٰ مرِّ الأوقات يوجد ما ينقض ذلك أو يكذبه (فحيثما طُبِّقت المعاملات المتنوعة بين الأفراد والجماعات في كل زمان ومكان علىٰ أصوله تم بها القسط والعدل والرحمة والخير والإحسان لأنها تنزيل من حكيم حميد) فهو جلَّ وعلا هو خالق الخلق وهو العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما فيه صلاحهم وفلاحهم ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[هود]، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾[فصلت]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[الحجر].

ثم بيَّن معنىٰ هٰذا الحفظ قال: (حافظون لألفاظه عن الزيادة والنقصان والتغيير، وحافظون لأحكامه عن الانحراف والنقص، بل هي في أعلىٰ ما يكون من العدل والاستقامة والتيسير).

قال:

وهو الدين العظيم الذي يهدي إلىٰ الحق وإلىٰ طريق مستقيم، الصدق شعاره، والعدل مداره، والحق قِوامه، والرحمة روحه وغايته، والخير قرينه، والصلاح والإصلاح جماله وأعماله، والهدىٰ والرشد زاده.

هٰذه كلمات عظيمة وصفات جليلة، جمع فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة كبيرة من محاسن هٰذا الدين بألفاظ عذبة، وكلمات حلوة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (وهو الدين العظيم الذي يهدي إلىٰ الحق وإلىٰ طريق مستقيم) قال: (الصدق شِعاره، والعدل مداره) أي يدور علىٰ تحقيق العدل (والحق قِوامه) أي قائم علىٰ الحق (والرحمة روحه وغايته، والخير قرينه، والصلاح والإصلاح جماله وأعماله، والهدىٰ والرشد زاده).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

قال:

وهو الدين الذي جمع بين مطالب الروح والقلب والجسد، أمر الله به المؤمنين بما أمر المرسلين بعبادته والعمل الصالح الذي يرضيه، وبالأكل من الطيبات واستخراج ما سخَّر الله لعباده في هٰذه الحياة، فدفع القائمين به حقيقة إلىٰ كل عُلو ورُقي وتقدُّم صحيح، مَنْ عرف شيئًا من أوصاف هٰذا الدين عرف عظيم منَّة الله به علىٰ الخلق، وأنَّ من نبذه وقع في الباطل والضلال والخيبة والخُسران؛ لأنَّ الأديان التي تخالفه ما بين خرافات ووثنيات وما بين إلحاد وماديات تجعل قلوب أهلها وأعمالهم كالبهائم؛ بل هم أضلُّ سبيلا؛ لأن الدين إذا ترحَّل من القلوب ترحَّلت الأخلاق الجميلة وحلَّ محلها الأخلاق الرذيلة فهبطت بأهلها إلىٰ أسفل الدركات، وصار أكبر همهم ومبلغ علمهم التَمتُّع بعاجل الحياة والحمد لله رب العالمين.

قال: (وهو الدين الذي جمع بين مطالب الروح والقلب والجسد) أي أنَّ الدين فيه تحقيق لما تطلبه الروح وما يطلبه القلب وما يطلبه الجسد، ففيه التزكية، وفيه الصلاح، وفيه الكمال، وفيه الجمال، وفيه الرحمة، وفيه الإحسان، إلىٰ غير ذلك من المعاني والمقاصد الجليلة التي يحققها هٰذا الدين، فيزكو العبد في مظهره ومخبره، في ظاهرة وباطنه، قال: (أمر الله به المؤمنين بما أمر به المرسلين) فالله جلَّ وعلا أمر المرسلين أن يعملوا صالحًا وأن يأكلوا من الطيبات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وأمر المؤمنين بذلك، أمرهم بما أمر به المرسلين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾[البقرة] فأمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ﷻ، قال: (بعبادته والعمل الصالح الذي يرضيه، وبالأكل من الطيبات واستخراج ما سخَّر الله لعباده في هٰذه الحياة، فدفع القائمين به حقيقة إلىٰ كل عُلو ورُقي وتقدُّم صحيح) وتأمل قوله: (تقدُّم صحيح) خلافًا لما يُزعم بأنَّه حضارة ورُقي وتقدُّم وهو في الحقيقة انحلال وانحراف وتقهقر وخروج من الفضائل، وتعرٍّ من الأخلاق والآداب والحشمة، فالإسلام جاء بكل رُقي وتقدُّم صحيح، أما ما يسمَّىٰ بالتقدم أو الحضارة أو الرقي ويكون منطويًا ومشتملًا علىٰ التعري من الأخلاق والفضائل والالتزام بشرع الله ﷻ فهٰذا ليس رُقيًّا؛ بل كما قال الشيخ حافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في جوهرته: «قالوا رُقيًّا قلنا إلىٰ الحضيض نعم» أما الرقي الصحيح فهو ما يدعو إليه هٰذا الدين من صلاح العبد في قلبه واستقامته في أعماله وأخلاقه مع السعي في استخراج ما سخَّره الله ﷻ لعباده في هٰذه الحياة، ويكون هٰذا السعي في استخراج ذلك دون تخلٍّ عن أعمال الدين الفاضلة، وأخلاقه وآدابه الكاملة.

قال: (من عرف شيئًا من أوصاف هٰذا الدين عرف عظيم مِنَّة الله به علىٰ الخلق) وهٰذه جملة أيضًا مهمة جدًّا، وكم تحتاج البشرية فعلًا إلىٰ أن تُبين لهم هٰذه المعاني، وأنْ تُوضح لهم محاسن هٰذا الدين، وقد قرأت للشيخ عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قسمًا بارًّا عظيمًا في بعض كتبه قال فيه: «والله لو أنَّ محاسن

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

هٰذا الدين أُبرزتْ للناس كما ينبغي لدخلوا في دين الله أفواجا» ولهٰذا كم تحتاج البشرية إلىٰ دُعاة يبرزون للناس محاسن هٰذا الدين، لأنَّ من عرف حُسْنَ هٰذا الدين وجماله وكماله لم يرض بديلًا عنه إلا شخص مكابر معاند طمس الله تبارك وتعالىٰ علىٰ قلبه، أما الراغبون في الخير، الراغبون في الصلاح، الراغبون في السعادة في الدنيا والآخرة، لا يمكن أن يرضىٰ بغير هٰذا الدين، ولهٰذا كثير من الخلق كان دخوله في هٰذا الدين أنْ سمع طرفًا يسيرًا من أخلاقه وآدابه ومحاسنه العظيمة.

قال: (وأنَّ من نبذه وقع في الباطل والضلال والخيبة والخسران) أي من رغب عن هٰذا الدين لن يجد إلا الخيبة والخسران في دنياه وأخراه ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾[البقرة:١٣٠]

قال: (لأن الأديان التي تخالفه ما بين خرافات ووثنيات وما بين إلحاد وماديات) أي إيمان بالمادة وكفر بما وراء ذلك، فلا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالملائكة ولا يؤمنون بالجنة، لا يؤمنون إلا بالأشياء التي يرونها ويشاهدونها (فما بين خرافات ووثنيات وما بين إلحاد وماديات تجعل قلوب أهلها وأعمالهم كالبهائم بل هم أضلُّ سبيلا) هٰذه حقيقة الأديان المخالفة للدين الإسلامي.

قال: (لأن الدين إذا ترحَّل من القلوب) أي ذهب عنها وفارقها (ترحَّلت الأخلاق الجميلة وحلَّ محلها الأخلاق الرذيلة) وماذا يحدث حينئذٍ؟ قال: (فهبطت بأهلها إلىٰ أسفل الدركات، وصار أكبر همهم ومبلغ علمهم التَمَتُّع بعاجل الحياة) هٰذه غاية ما يطمع فيه من ترحَّل منه هٰذا الدين العظيم وأخلاقه الفاضلة، قال: (وصار أكبر همه ومبلغ علمه التَمَتُّع بعاجل الحياة).

وختم هٰذا البيان بقوله: (والحمد لله رب العالمين) وفعلًا الذي يستشعر هٰذا النعمة العظيمة والمِنَّة الجليلة وهي هداية الله ﷻ له لهٰذا الدين ومِنته عليه بأن كان من أهل هٰذا الدين، لم يكن من أهل دين قائم علىٰ الوثنية والخرافة، ولا دين قائم علىٰ الإلحاد والماديات؛ بل هو علىٰ دين الله ﷻ الذي رضيه ﷻ لعباده، فهٰذه أكبر نعمة وأجل منَّة، فلله الحمد أولا وآخرًا، وله الشكر ظاهرًا وباطنًا، ونسأله جلَّ وعلا أن يثبتنا علىٰ دينه وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يعيذنا من الضلال ومن الفتن كلها، اللّٰهمَّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر، اللّٰهمَّ اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات إنك غفور رحيم.

والله تعالىٰ وأعلم وصلىٰ الله وسلم علي عبده ورسوله نبينا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين.

❁❁❁

[أسئلة المجلس الثاني]

السؤال الأول: هل الإيمان بالكتب السابقة يكون إيمانًا مجملًا أم إيمانًا مفصَّلًا ؟

الجواب: الإيمان بكتب الله تبارك وتعالىٰ المنزلة السابقة هو إيمان مجمل فيما أُجمل ومفصَّل فيما فُصِّل، بمعنىٰ أنَّ ما عرفنا عن تلك الكتب مُفَصَّلا فيما يتعلق بأسمائها أو مفصَّلا فيما يتعلق ببعض أخبارها فإننا نؤمن به مفصَّلا كما جاء، وما لم يرد من ذلكم مفصَّلا نؤمن به مجملًا.

السؤال الثاني: هل الأفضل أن تعفو عمَّن ظلمك أو تدعو عليه ؟

الجواب: الأفضل العفو والله ﷻ يحب ذلك قال: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾[آل عمران] والتعامل مع الظالم علىٰ ثلاثة مراتب جمعها الله ﷻ في آية واحدة من القرآن الكريم وهي قوله سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾[الشورىٰ] فهٰذه الآية الكريمة جمع الله ﷻ فيها المراتب المحتملة وقوعًا في التعامل مع الظالم.

المرتبة الأولىٰ: وهي مجازاة السيئة بالمثل ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾[النحل:١٢٦] وهٰذا مباح معاقبة المسيء أو الظالم أو المعتدي بالمثل، هٰذا مباح.

والمرتبة الثانية: العفو ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[الشورىٰ:٤٠] وهٰذه أفضل المراتب وهي العفو والإصلاح.

والمرتبة الثالثة: الظلم، معاملة المسيء بظلمه والاعتداء عليه والبغي، فهٰذا حرام ولا يجوز، وأفضل المراتب وأكملها العفو.

السؤال الثالث: ما حكم من يضع كتب العلم خلف صندوق الأحذية، وهل لهم من نصيحة ؟

الجواب: كتب العلم محترمة، ولا يستفيد من كتب العلم إلا من يحترمها ويعرف لها مكانتها، فهي كتب فيها كلام الله، وفيها أحاديث رسول الله ﷺ، وفيها بيان شرع الله ﷻ، وفيها بيان العقيدة الصحيحة، فيها بيان الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة، ولهٰذا ينبغي أن يكون التعامل مع الكتب بالاحترام، لا يُلقي الكتاب؛ يرميه رميًا في الأرض، ولا يضعه مع الأحذية أو في الأماكن الغير نظيفة، ولا أيضًا يضعه في أماكن تُعرِّضه للتلف، بعض طلاب العلم إذا ركب سيارته يضع الكتاب قريبًا من الزجاج، ومعنىٰ ذلك أنه تعريض الكتاب للتلف والتضرر بالشمس، ولهٰذا بسرعة يتلف الكتاب.

والكتب ينبغي فعلًا علىٰ طالب العلم أن يحافظ عليها وأن يتعامل معها بالاحترام، فكتب العلم محترمة لأنها مشتملة علىٰ كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، مشتملة علي بيان دين الله تبارك وتعالىٰ، فلابد أن يتعامل معها بالاحترام.

السؤال الرابع: هل الديانات الأخرىٰ وإنْ كانت باطلة لها أسس وثوابت ؟

الجواب: الديانات الأخرىٰ منها ما هي ديانات نبتت أصلًا في الأرض واخترعها الناس من بدايتها، وهناك ديانات في أصولها ديانات منزَّلة لكنها حُرِّفت وغُيِّرت وبُدِّلت من الحق إلىٰ الباطل ومن الهدىٰ

إلىٰ الضلال، فمنها ما هي ديانات اختُرعت ونشأت في الأرض، ومنها ما هي ديانات نزلت وحيًا من الله لكن حصل لها التغيير والتبديل فتحوَّلت إلىٰ أديان باطلة وأديان مُحرَّفة.

السؤال الخامس: هل يجوز وضع صوت الديك في الجوالات في التنبيه ؟

الجواب: الأمر واسع، لكن مثل هٰذه الأصوات أحيانًا تكون مؤذية للناس، يعني يأتي بأصوات أحيانًا تكون مؤذية مزعجة للآخرين، يعني مثل هٰذا لما يضع صوت ديك ويكون الناس في جلوس في مجلس يتوهم أنه حوله، أو بعضهم يضع خرير الماء يعني يسمع الصوت ثم يلتفت يظن الماء انصبَّ عليه، فهٰذه أصوات مؤذية والعاقل لا يأتي بشيء يؤذي الناس أو يُدْخل عليهم شيئا وإنما يأتي بأمر مألوف ويكون فيه التنبيه، ولا يكون أيضًا فيه الإيذاء للآخرين، ولا يكون أيضًا مشتملًا علىٰ محرم من أصوات موسيقية أو أغاني أو أصوات محرمة.

والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ رسول الله.

المجلس الثالث

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللّٰهمَّ علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علمًا، اللّٰهمَّ إنَّا نسألك علمًا نافعًا ورزقا طيبًا وعملًا متقبلًا ، اللّٰهمَّ وفِّقنا لما تحبه وترضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المشكلة الثانية: مشكلة العلم.

لقد غلط كثير من الناس في مُسمَّىٰ العلم الصحيح الذي ينبغي ويتعيَّن طلبه والسعي إليه علىٰ قولين متطرفين، أحدهما أخطر من الآخر:

فالأول: قول من قصر العلم علىٰ بعض مسمىٰ العلم الشرعي المتعلق بإصلاح العقائد والأخلاق والعبادات دونما دلَّ عليه الكتاب والسنة من أن العلم يشمل علوم الشرع ووسائلها وعلوم الكون وهٰذا قول طائفة ممن لم تتبصَّر بالشريعة تبصُّرًا صحيحًا، ولكنهم الآن بدأوا يتحللون من هٰذا الإطلاق لما رأوا من المصالح العظيمة في علوم الكون وحين تنبَّه كثيرٌ منهم لدلالات نصوص الدين عليه.

والقول الثاني: قول من قصر العلم علىٰ العلوم العصرية التي هي بعض علوم الكون، وهٰذا القول إنما نشأ من انحرافهم عن الدين وعلومه وأخلاقه، وهٰذا غلط عظيم حيث جعلوا الوسائل هي المقاصد وحيث نفوا من العلوم الصحيحة والحقائق النافعة ما لا تُنسب إليه العلوم العصرية بوجهٍ من الوجوه، وغرَّهم ما ترتَّب عليها من الصناعات والمُخترعات، وهؤلاء هم المرادون بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣﴾[غافر]. فهم فرحوا بعلومهم واستكبروا بها واحتقروا علوم الرسل حتىٰ نزل بهم ما كانوا به يستهزئون من الحق، ونزل بهم العذاب الذي وُعد به من كذب الرسل، وعُذِّبوا في الدنيا بالختم علىٰ قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وعُموا عن الحق ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾[الرعد].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (المشكلة الثانية: مشكلة العلم) مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمشكلة العلم أي ما يحدث لدىٰ الناس من إشكالٍ في هٰذا الباب، وما يقع في هٰذا الباب من إشكال لديهم في حقيقة العلم ما هو؟ وما المطلوب من العبد فيه؟

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنَّ من الناس مَنْ قصر العلم النافع علىٰ بعض علوم الشريعة وحقائقها المطلوبة من العباد وأخرج من العلم النافع الأمور العامة النافعة المفيدة التي تتعلق بها مصالح العباد وتتعلق بها حاجاتهم، ومن الناس من نحا منحًا آخر في بيان العلم وحقيقته فجعل العلم محصورٌ في العلوم الدنيوية وأخرج العلوم الدينية من حقيقة العلم؛ فآل أمر هؤلاء إلىٰ التحلل من الدين ومن الأخلاق ومن الآداب ومن تحقيق العبوديات التي خلق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الخلق لأجلها، ثم بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنَّ العلم يتناول ذلك كُلَّه، العلم النافع يتناول ذلك كُلَّه:

يتناول بالأصالة علوم الشريعة التي عليها مدار السعادة والفلاح، وهي الداخلة دُخُولًا أوليًا فيما أثنىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليه أو علىٰ أهل العلم به؛ لأنَّ ثناء الله علىٰ أهل العلم وعلىٰ الذين يعلمون؛ المراد بذلك أصالة علم الشريعة: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الزمر:٩]. ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ

كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾[الرعد:١٩]. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة:١١]. وما جاء في هٰذا المعنىٰ من آيات؛ المراد به العلم الشرعي الذي يصل به العبد إلىٰ رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجنته، كذلك نصوص السنة في مدح العلم والثناء علىٰ أهله «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل اللهُ لهُ بهِ طريقًا إلىٰ الجنَّة »، «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع» إلىٰ أن قال: «وإن العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر» وقوله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ».

ونحو ذلك من النصوص التي تختص بالثناء علىٰ من تعلَّم العلم الشرعي وتفقه في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وميَّز بين الحلال والحرام، وعرف الأحكام، والهدىٰ من الباطل والحق من الضلال، فلا شك أن هٰذا هو الأصل الذي تُبنىٰ عليه السعادة.

والعلوم الأخرىٰ النافعة في أمور الدنيا وفي حاجات الناس ومصالحهم مما لا تكون مُتصادِمةً مع الدين ولا مُخِلَّة بآدابه وأصوله، فهٰذه محمودة لا تُذم ولا يُنهىٰ عنها ولا ينهىٰ عن تعلمها، بل عمومات النصوص تدل علىٰ ذلك، ولهٰذا خطَّأ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من ينهىٰ عن هٰذه العلوم ولا يرتضيها ولا يقبلها، فهي علوم تنفع الناس وتفيدهم كعلم الطب ونحوه من العلوم التي فيها فائدة ومصلحة ومنفعة للناس في معاشهم ودنياهم، فهٰذه من العلوم النافعة لا يُنهىٰ عنها.

أيضًا بالمقابل لا تكون هٰذه العلوم الدنيوية طاغية علىٰ الأصل؛ بحيث يكون الإنسان علمه منحصرًا في ذلك ولا علم له بدين الله فيكون من أهل قوله تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[الروم] أي علم الآخرة الذي يُوصِل الىٰ رضوان الله تبارك وتعالىٰ وجنته غافلون عنه، معرضون عن تعلمه، ولهٰذا يوجد كثير في الناس من يكون بصيرًا ببعض علوم الدنيا أو العلوم الدنيوية ولكن الأمور التي تُعلم من الدين بالضرورة يجهلها ولا فقه له فيها، وهٰذه مصيبة وبليَّة عظيمة بحيث تصبح حال الإنسان في علمه في حدود هٰذه الحياة الدنيا، أما ما يتعلق بالآخرة وما يقرِّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا نصيب عنده من ذلك، وفي الدعاء المأثور عن نبينا ﷺ: «اللّٰهمَّ لا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا » الدنيا تكون مبلغ علم الإنسان عندما تكون علومه مُنحصرة في العلوم الدنيوية، أما إذا لم تكن منحصرة في العلوم الدنيوية وتفقه في دين الله ولاسيما ضروريات الدين وواجباته فإنه لا يُذم علىٰ تعلمه العلوم النافعة المفيدة التي فيها مصلحته ومصلحة العباد، فهٰذا لا يُذم علىٰ ذلك ولا يُنهىٰ عنه، والحق قوام بين من ينهىٰ عن هٰذه العلوم نهيًا كُليًّا ويحذر منها وبين من يجعل هٰذه العلوم هي علومه مُعرضًا عن علم الآخرة وعن العلوم المُقرِّبة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

أما مدلول العلم النافع ومسمَّاه الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة فهو: كل علم أوصل إلىٰ المطالب العالية وأثمر الأمور النافعة؛ لا فرق بين ما تعلَّق بالدنيا وبالآخرة، فكل ما هدىٰ إلىٰ السبيل ورقَّىٰ العقائد والأخلاق والأعمال فهو من العلم، فقسَّم العلوم إلىٰ قسمين:

- مقاصد.
- ووسائل توصل إليها وتعين عليها.

أولًا: ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ مدلول العلم النافع ومُسمَّاه الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة، قال: (هو كل علم أوصل إلىٰ المطالب العالية وأثمر الأمور النافعة؛ لا فرق) في ذلك (بين ما تعلق بالدنيا أو بالآخرة) لكن هٰذا لا بد فيه من قيد وضابط وهو: أن لا تطغىٰ علوم الدنيا علىٰ علم الآخرة -العلم المُقرِّب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فإنه حينئذٍ يُذم، إذا كان علم الدنيا هو مبلغ علم الإنسان ولا اهتمام له بعلم الآخرة؛ لا اهتمام له بالعلم الذي يُقرِّب إلىٰ رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجنته فهٰذا لا شك أنه يُذم؛ لأنه أصبح هٰذا العلم الدنيوي مبلغ علمه، أي لا علم له ولا هِمّة له في تعلم العلم المقرب إلىٰ الله، ففي مثل هٰذه الحالة يُذم لكن إذا كان مع هٰذا العلم تعلُّم علم الآخرة أو تعلُّم كحدٍّ أدنىٰ ما يُعلم من الدين بالضرورة من فرائض الإسلام وواجبات الدين، فهٰذا في مثل هٰذه الحالة لا يُذم؛ بل هو علم نافع يُحمد عليه صاحبه، وإذا صحبه في ذلك نية صالحة تحوَّل إلىٰ قُربة من القُرب، مثل أن يتعلَّم علم الطب أو نحوه من العلوم ليخدم الناس ويكون ساعيًا في علاجهم، في شفاءهم من الأمراض بإذن الله تبارك وتعالىٰ فيما يتعلق بالآلام المؤذية والمزعجة لهم، فإذا استصحب هٰذه النية الصالحة كان في عمله في قربة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالشاهد أنَّ هٰذه العلوم تُمدح إذا لم تطغ علىٰ علم الآخرة ولم تكن هي مبلغ علم الإنسان، وإذا صحب تعلمه لها نية صالحة تحوَّلت بذلك إلىٰ قُربة من القُرب التي يثاب عليها عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم قال: (وقسَّم العلوم إلىٰ قسمين: مقاصد، ووسائل توصل إليها وتُعين عليها) ومن المعلوم أنَّ من القواعد الكلية أنَّ الوسائل لها أحكام المقاصد، فالمقاصد الواجبة وسائلها واجبة، والمقاصد المستحبة وسائلها مستحبة، والوسائل المحرمة وسائلها أيضًا محرمة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قال: (فالمقاصد هي العلوم المصلحة للأديان، والوسائل ما أعان عليها من علوم العربية بأنواعها ومن علوم الكون التي ثمرتها معرفة الله ومعرفة وحدانيته وكماله ومعرفة صدق رسله).

الآن عرفنا أن العلوم علمان:

١- علم هو: علم المقاصد.

٢- وعلم هو: علم الوسائل.

ولا شك أنَّ المقصد هو الذي يطلب أصالة وابتداءً؛ لأنه هو المقصد وهو الأساس، وعرّفه الشيخ

رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّه: العلوم المُصلحة للأديان، هٰذا علم المقاصد، العلوم المصلحة للأديان أو هو ما قال عنه النبي ﷺ في الحديث الصحيح «من يُرد اللهُ به خيرًا يفقهه في الدين» فهٰذا علم مقاصد.

والنوع الآخر من العلم: علم الوسائل وعرّفه بأنه: (علوم العربية بأنواعها وعلوم الكون التي ثمرتها معرفة الله ومعرفة وحدانيته) لأنها داخلة في عموم النصوص التي فيها الدعوة إلىٰ النظر في ملكوت الله وفي خلق الله والتفكر في النفس وما أودع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها من الآيات العظيمة قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾[الغاشية] وقال جلَّ وعلا: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الذاريات]. فعلم الكون إذا استصحب فيه متعلمه نية صالحة زاده معرفة بالله وبعظمة الله وقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واطّلع عن كثب علىٰ آيات الله العظيمة الدالة علىٰ وحدانيته فكان ذلك من أسباب زيادة الإيمان وقوة الصلة بالله، فإذًا هو وسيلة؛ بهٰذه الطريقة يكون وسيلة عظيمة في باب المعرفة، معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ والإيمان به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو وسيلة، فإذا كان تعلمه في حدود ذلك صار نافعًا للعبد نفعًا عظيمًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وثمرته: الاستعانة بها علىٰ عبادة الله وشُكره وعلىٰ قيام الدين، فإنَّه تعالىٰ أخبر أنه سخَّر هٰذا الكون وأمرنا أن نتفكَّر فيه ونستخرج منافعه الدينية والدنيوية، والأمر بالشيء أمر به وأمر بما لا يتم إلا به، وذلك حثٌّ علىٰ معرفة علوم الكون التي يُستخرج بها ما سخَّره الله لنا؛ لأنَّ منافعها لا تحصل لنا عفوًا من دون طلب وفكر وتجارب، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[الحديد:٢٥]، فهٰذه المنافع لا تحصل إلا بالمعرفة بفنون الصنائع حتىٰ يتم إنتاجها، وقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنة علىٰ الثناء علىٰ العلم وأهله وتفضيلهم علىٰ غيرهم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وأنهم أهل الخشية لله والمعرفة به ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر:٢٨]، وأمر الجُهَّال بسؤال أهل العلم.

هنا يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ثمرة العلوم الكونية وفائدتها للمسلم إذا تعلَّمها بنية صالحة وقصد طيب، فذكر أنها تُعين العبد علىٰ عبادة الله وعلىٰ شُكره وعلىٰ قيام الدين، واستدل لذلك بأنَّ الله جلَّ وعلا أخبر أنه سخَّر لنا هٰذا الكون وأمرنا أن نتفكَّر فيه ونستخرج منافعه الدينية والدنيوية، قال: (والأمر بالشيء أمر به وأمر بما لا يتم إلا به) فهٰذا فيه دلالة علىٰ أن تعلم علم الكون بنية صالحة يُثمر قوة في المعرفة بالله وآياته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ مما يقوي الإيمان به وتحقيق وحدانيته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ثم ذكر بعض الأدلة علىٰ ذلك، ثم قال:

وقد أمر بعبادات كثيرة وعفا عن محرمات.

هكذا في جميع نُسخ الكتاب المطبوعة (وعفا عن محرمات) وهو خطأ والصواب: **(ونهىٰ عن محرمات).**

والأمر بالشيء والنهي عنه لا يمكن امتثال الأمر واجتناب النهي إلا بعد علمه ومعرفته، فجميع الأوامر الشرعية والنواهي تدل علىٰ وجوب تعلم العلم الذي تتوقف عليه، كما أنه أباح معاملات، وحرَّم معاملات، لا يمكن تمييز الحلال والحرام منها إلا بالعلم، وقد ذمَّ من لم يعرف حدود ما نزل علىٰ رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة.

ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا قاعدة تبين مكانة العلم العظيمة ومنزلته العليَّة قال: (أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بأوامر ونهىٰ عن نواهي) أمر بأوامر: أعظمها توحيده، ونهىٰ عن نواهٍ: أخطرها الإشراك به جلَّ وعلا، (والأمر بالشيء والنهي عنه لا يمكن امتثال الأمر واجتناب النهي إلا بعد علمه ومعرفته) ولهٰذا فإن العلم مُقدَّم علىٰ العمل وبه يُبدأ، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾[محمد:١٩].

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم بعد صلاة الصبح يقول في دعاءه: «اللّهمَّ إني أسألك علمًا نافعًا ورزقًا طيبًا وعملًا متقبلًا» فبدأ عليه الصلاة والسلام بالعلم النافع قبل الرزق الطيب والعمل المتقبل، وذلك لأنه بالعلم النافع يميِّز بين الرزق الطيب والخبيث وبين العمل الصالح والطالح، ومن لم يكن عنده علم نافع كيف يميز بين رزق خبيث أو طيب؟ وبين عمل صالح أو طالح؟ فالعلم هو الميزان الذي توزن به الأمور ويضيء للعبد طريقه، ويعرف به الهدىٰ من الضلال والحق من الباطل والخبيث من الطيب، كيف يتّقي المحرمات من لا يدري بها ولا يعرفها؟!

كما قال بعض السلف قديمًا: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي» نهىٰ الله عن المحرمات ونهىٰ عن الآثام وبين عقوباتها، فكيف يتقيها من لم يتعلمها ؟

كيف يتقيها من لم يقف علىٰ زواجرها في الكتاب والسنة وعقوباتها ؟

وأيضًا كيف يباشر الأوامر ويفعلها علىٰ الوجه الذي يُرضي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دون أن يكون عنده فقه وتعلم؟

قال: (والأمر بالشيء والنهي عنه لا يمكن امتثال الأمر واجتناب النهي إلا بعد علمه ومعرفته، فجميع الأوامر الشرعية والنواهي تدل علىٰ وجوب تعلم العلم الذي تتوقف عليه) لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كيف يصلي المسلم؟ إلا بالعلم.

كيف يزكي؟ إلا بالعلم.

كيف يحج؟ إلا بالعلم.

لا يمكن أن يقوم بالأوامر وواجبات الدين إلا بالعلم؛ بالفقه في دين الله؛ ولهٰذا قال عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» مفهوم المخالفة للحديث أن من لم يتفقه في الدين لم يُرَدْ به خيرًا لأنه إذا لم يتفقه في الدين كيف يقوم بأعمال الدين؟ وكيف تقع من مثله الطاعات علىٰ الوجه المشروع وعلىٰ الوجه الذي أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عباده به؟.

قال: (كما أنه أباح معاملات وحرم معاملات) لا يمكن تمييز الحلال والحرام منها إلا بالعلم، كيف

يميّز الإنسان بين معاملات وبيوع مباحة وبين معاملات وبيوع محرمة؟ إلا بالعلم، ولهٰذا من لطيف ما يُذكر أن جماعة جاءوا لمحمد بن الحسن أو أبو يوسف وقالوا: «نريد أن تؤلف لنا كتابا في الزهد» فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «لقد ألّفت كتابًا في البيوع» مُراده أنه يكفيكم في هٰذا الباب، بمعنىٰ أنَّ الزهد فرع عن علم الإنسان بالبيوع المباحة والمحرمة، إذا كان الإنسان يتعامل مع الناس بالبيع والشراء والأخذ والعطاء ولا فقه له في هٰذا الباب ولا بصيرة عنده كيف يتحقق من مثله الزهد؟

فالزهد الحقيقي فرع عن الفقه في دين الله ومعرفة الحلال والحرام والبصيرة بأحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما الذي يدخل في التعاملات، في البيع، في الشراء، في الأخذ والعطاء بدون فقه في دين الله قد يدخل عليه دواخل كثيرة في بيوعه من أشياء حرمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونهىٰ عباده عنها.

فالأمر الذي أحلّه الله من المعاملات وحرمه لا يمكن أن يُميَّز إلا بالعلم النافع، وقد ذمَّ جلَّ وعلا من لا يعرف حدود ما أنزل علىٰ رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة، وهٰذه الحدود لا يمكن أنْ تُعرف إلا بالعلم.

قال:

ومن ذلك أنه أمر بالجهاد في عدة آيات، وبإعداد المستطاع من القوة للأعداء، وأخذ الحذر منهم ولا يتم ذلك إلا بتعلُّم فنون الحرب والصنائع التي تتوقف القوة والحذر منهم عليها.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال:٦٠]، هٰذا لا يمكن أن يكون إلا بالعلم، لا يمكن أن يكون ويتحقق إلا بالعلم.

وأمر بتعلم أصول التجارة والأصول الاقتصادية حتىٰ إنه أمر أنْ يبتلىٰ الأولاد الصغار اليتامىٰ ويُعلَّموا التجارة وطلب المكاسب قال تعالىٰ: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾[النساء:٦].

هٰذا مُوجَّه إلىٰ ولي مال اليتيم؛ أنه لا يضع في يده المال حتىٰ يبتليه ويعرف رشده وحُسْن تصرفه في المال، أما إذا تبيَّن له أنه غِرًّا جاهلًا لا يعرف طريقة البيع والشراء والتعامل، إذا وُضِع في يده المال ضاع في لحظة واحدة، فقبل أن يوضع في يده المال يُبتلىٰ هل عنده رُشد في هٰذا الباب؟

والرُشد في هٰذا الباب: حُسْن التصرف والمعرفة بالمال وتدبيره، وأما إذا كان ليس عنده ذلك لا يوضع في يده المال؛ لأن وضع المال في يده ضياع للمال.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

فلم يأمر بدفع أمواله إليهم حتىٰ يُعلم رشدهم ومعرفتهم بأمور المكاسب والتجارة.

فهٰذه الشريعة الكاملة أمرت بتعلم جميع العلوم النافعة: من العلم بالتوحيد، وأصول الدين، ومن علوم الفقه والأحكام، ومن علوم العربية، ومن العلوم الاقتصادية والسياسية، ومن العلوم التي تصلح بها الجماعات والأفراد.

فما من علم نافع في الدين والدنيا إلا أمرت به هٰذه الشريعة وحثت عليه ورغّبت فيه، فاجتمع فيها العلوم الدينية، والعلوم الكونية، وعلوم الدين، وعلوم الدنيا؛ بل إنها جعلت العلوم الدنيوية التي تنفع من علوم الدين.

وأما المتطرفون فإنهم اقتصروا علىٰ بعض علوم الدين، فقصروا وغلطوا غلطًا فاحشا.

التطرف هنا إذا كان بالنهي والذم المطلق للعلوم الدنيوية، أما إذا كان ليس هناك نهي واقتصر طالب العلم علىٰ العلم الشرعي فقط والفقه في دين الله وأقبل علىٰ ذلك وكرَّس حياته وجهده لهٰذا الأمر لأنه أهم الأمور وأعظم المطالب والحاجة إليه أمس ولم يذم العلم النافع من العلوم الدنيوية لا يذم ولا يكون ذلك تطرفًا، هٰذا المراد للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

قال:

وأما الماديون فإنهم اقتصروا علىٰ بعض علوم الكون، وأنكروا ما سواها، فألحدوا ومرجت أديانهم وأخلاقهم، وصارت علومهم حاصلها أنها صنائع جوفاء، لا تزكي العقول والأرواح، ولا تغذي الأخلاق، فكان ضررها عليهم أعظم من نفعها، فإنهم انتفعوا بها من جهة ترقية الصنائع والمخترعات وتوابعها، وتضرروا بها من جهتين:

إحداهما: أنها صارت أكبر نكبة عليهم وعلىٰ جميع البشر، لِما ترتب عليها من الفناء والحروب المهلكة والتدمير.

الثانية: أنهم أعجبوا بها واستكبروا، فحقروا لذلك علوم الرسل وأمور الدين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾[غافر:٥٦]، ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾[الأحقاف] .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما الماديون) يعني الذين اقتصروا علىٰ العلوم المادية؛ العلوم الدنيوية، وأعرضوا عن علوم الدين إعراضا كليًّا؛ لم يتفقهوا في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واقتصروا علىٰ بعض علوم الكون وأنكروا ما سوىٰ ذلك، ومن جملة ما أنكروه علوم الدين؛ العلم الذي جاء به رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه؛ والذي به سعادة الناس وفلاحهم في الدنيا والآخرة، يقول: هؤلاء لمَّا أعرضوا عن هٰذا العلم علم الدين؛ علم الشريعة؛ (ألحدوا ومرجت أديانهم أخلاقهم، وصارت علومهم حاصلها أنها صنائع جوفاء لا تزكي العقول والأرواح ولا تغذي الأخلاق) ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾[الروم].

ثم يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن هٰذا الاقتصار من هؤلاء علىٰ العلوم المادية معرضين عن علم الدين -علم الشريعة- ترتَّب عليه مفاسد وأضرار كثيرة حلّت بهؤلاء، وجنايات عديدة لحقت بهؤلاء، لكن أخطرها أمران:

__الجناية الأولىٰ__: أنها صارت أكبر نكبة عليهم وعلىٰ جميع البشر، لمَّا اشتغل هؤلاء بالصناعات وخاصة في مجال الأسلحة الفتَّاكة المدمرة وخاضوا في صناعة تلك الآلات وتوسَّعوا فيها وتوصَّلوا الىٰ صناعات أسلحة مُدمِّرة مُهلكة، وفي الوقت نفسه ليس في قلوبهم دين، ليس في قلوبهم خوف من الله ولا مراقبة له، ليس في قلوبهم اعتقاد أن هناك آخرة وحساب وعقاب وجنة ونار؛ فأصبحت هٰذه الأسلحة في يد رجل ليس في قلبه ما يحجزه ويردعه ويمنعه، ليس في قلبه خوف من الله ولا مراقبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

مثل: لو كان بيد أحد الطائشين الزائغين آلة مدمرة يهلك نفسه ويهلك الآخرين ولا يبالي، ليس هناك دين يردع أو خلق يزع، ليس هناك آداب، تجرَّدت قلوبهم وعلومهم عن العلوم [الدينية] التي تهذب وتُزكِّي وتجعل الإنسان يحسن في التعامل ويراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويرحم، فهٰذه الأمور كلها انتُزعت منهم، لأن

كل حياتهم تكرَّست في دراسة العلوم الدنيوية؛ علوم الصناعات، علوم الآلات، أما الدين فهم عنه غافلون، هم معرضون، فهٰذه جناية.

الجناية الثانية: أنها أوجدت في قلوبهم استكبارًا علىٰ الحق وتعالٍ عليه، فإذا ذُكر لهم شيء من علوم الدين المقربة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ سخروا واستكبروا وتجبروا وطغوا واحتقروا ورأوا أنهم هم أهل العلوم وأنهم هم أهل البصيرة وأنهم وأنهم، وحاصل ما عندهم من علوم: أمورًا تتعلق بالدنيا فإذا فارقت أرواحهم أجسادهم انتهىٰ كل شيء وأقبلوا علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وليس عندهم شيء يقربهم إلىٰ الله ويدنيهم منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فخسروا خسرانًا مبينًا.

فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أشار إلىٰ أنَّ اقتصار هؤلاء علىٰ العلوم المادية معرضين عن العلوم المُقرِّبة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ترتَّب عليه أن تضرر هؤلاء من جهتين:

قال: (الجهة الأولىٰ: أنها صارت أكبر نكبة عليهم وعلىٰ جميع البشر بما ترتَّب عليها من الفناء والحروب المهلكة والتدمير) يعني قارن الآن عندما يقوم هؤلاء بتفعيل هٰذه الآلات المدمرة وكم يَهْلَك من البشر صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساءً، أرواح تُزهق بينما النبي عليه الصلاة والسلام لمَّا يذهبون إلىٰ معركة يُراد بها نُصرة الدين تجد رحمة الإسلام معهم، تجد آداب الإسلام «لا تقتلوا وليدًا، لا تقتلوا امرأة، لا تقتلوا شيخًا» تجد رحمة الإسلام ماضية معهم، يُقتل المقاتلة الذين يحملون السلاح ويجاهون أنصار دين الله تبارك وتعالىٰ، أما المرأة الضعيفة والطفل الصغير والمواشي والدواب، هٰذه لا تُقتل، بينما هؤلاء الذين بأيدهم هٰذه الأسلحة إذا غضبوا غضبةً دمَّروا كل شيء ولا يبالون هل هو طفل صغير أو امرأة أو رجل مسن أو ماشية أو غير ذلك، لا يبالون بذلك أبدًا، فهٰذه جناية.

الجناية الأخرىٰ: أنها أورثت في نفوسهم علوًا واستكبارًا وفرحًا بما عندهم من العلم وتعاليًا علىٰ علوم الأنبياء والمرسلين، العلوم التي تُقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رب العالمين.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتبين مما ذكرنا أنَّ العلوم النافعة في العاجل والآجل: هي العلوم التي جاءت في كتاب الله وسنته رسول الله ﷺ، وأنها احتضنت كل علمٍ نافع، ومعرفة صحيحة، لا فرق بين الأصول والفروع، ولا بين الدينية والدنيوية، كما احتضنت عقيدتها الإيمان بكل حق وحقيقة، وبكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، والحمد لله.

المشكلة الثالثة: مشكلة الغنى والفقر

تنوَّعت مقاصد الخلق وسياساتهم في مسألة الغنىٰ والفقر، بحسب أغراضهم النفسية، لا بحسب اتباعهم للحق ونظرهم للمصالح العامة الكلية، ولكنهم اخطأوا الطريق النافع، حيث لم يتقيدوا بهدايات الدين الإسلامي، وتنوعت بهم الأفكار، وعملوا علىٰ مقتضىٰ ذلك، فحصل بذلك شر مستطير، ووقعت فتنٌ كبرىٰ بين من يدَّعي نُصرة الفقر والفقراء والعُمَّال، وبين من يتمسَّك التمسك المزري بالثروات والأموال، ولهم في ذلك كلام طويل كله خطأ وضلال، وهدىٰ الله المؤمنين إلىٰ صراط مستقيم في جميع أمورهم عامة وفي هٰذه المسألة خاصة.

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا مشكلة وهي مشكلة الغنىٰ والفقر، والغنىٰ مشكلة، والفقر مشكلة، وهناك دراسات كثيرة كما أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتوجُّهات عديدة في حل المشكلتين: مشكلة الغنىٰ، والفقر.

وأشار إلىٰ أنَّ مَنْ تعاطوا حل هٰذه المشكلة تعاطوها بحسب أغراضهم النفسية، فمنهم مَنْ يبحث عن حل لهٰذه المشكلة بما يحقق مصالحه الخاصة، منهم من يبحث حل هٰذه المشكلة ولا يُبالي بالأضرار التي تطال الفقراء وتحصل لهم فيكون الحل عندهم بالنظر الىٰ جانب الأغنياء علىٰ سبيل المثال، فثمة حلول كثيرة لهٰذه المشكلة تُطرح بوجهٍ عام وبسياسات عامة يتبنَّاها أهل الشأن، وهناك أيضًا حلول خاصة، لكن يقول الشيخ رحمة الله عليه: أنَّ جميع هؤلاء تنكَّبوا الجادة السويَّة (ووقعت فتن كبرىٰ ممن يدَّعي نُصرة الفقراء والفقر والعُمَّال، وبين من يتمسك التمسك المزري بالثروات والأموال) يشير إلىٰ توجهات وسياسات عامة في حل هٰذه المشكلة.

قال: (ولهم في ذلك كلام طويل وكله خطأ وضلال، وهدىٰ الله المؤمنين إلىٰ صراط مستقيم في جميع أمورهم عامة وفي هٰذه المسألة الخاصة) يعني مسألة الغنىٰ والفقر.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اكتفىٰ بهٰذه الإشارة المُجملة للحلول وفصّل في الحل الإسلامي والمنهج الشرعي في علاج مشكلة الغنىٰ ومشكلة الفقر، بمعنىٰ: **ما هي التوجيهات الشرعية التي جاء بها الإسلام لأصحاب الأموال مما يحقق لهم السعادة والبركة وزيادة الربح والفوز بثواب الآخرة؟**

وما هي التوجيهات أيضًا التي جاء بها الإسلام في حق الفقراء؟ كيف يتعاملون مع الفقر؟ وما هي الحلول الشرعية له؟

فجاء الشيخ بخُلاصات عظيمة جدًّا ونافعة في هٰذا الباب، أو بعبارة أخرىٰ جاء الشيخ رحمة الله عليه بتوجيهات نافعة ومفيدة تختص بالأغنياء وتوجيهات نافعة ومفيدة تختص بالفقراء.

قال:

جاء الشرع ولله الحمد بصلاح الأغنياء والفقراء بحسب الإمكان لمّا حكم الله تعالىٰ قضاءً وقدرًا أن الخلق درجات، فمنهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم الشريف ومنهم الحقير، بحكم عظيمة وأسرار يضيق التعبير عن وصفها، فربط بعضهم ببعض بالروابط الوثيقة وسخَّر بعضهم لبعض، وتبادلت بينهم المصالح العادلة واحتاج بعضهم إلىٰ بعض.

شرع الشارع الحكيم:

أولا: أن يكونوا إخوانًا وأن لا يستغل بعضهم بعضًا استغلالًا شخصيًّا، بل أرشد كلًا منهم أن يقوم نحو الآخر بواجباته الشرعية التي يتم بها الالتئام وتقوم بها الحياة.

أمر الجميع أن يتوجَّهوا بأجمعهم إلىٰ المصالح العامة الكلية التي تنفع الطرفين، كالعبادات البدنية والمشاريع الخيرية، وجهاد الأعداء ومقاومتهم، ودفع عدوانهم بكل وسيلة، كل منهم بحسب وسعه وقدرته، هٰذا ببدنه وماله، وهٰذا ببدنه، وهٰذا بماله، وهٰذا بجاهه وتوجيهه، وهٰذا بتعلمه وتعليمه؛ لأن الغاية واحدة، والمصالح مشتركة والغاية شريفة والوسائل إليها شريفة.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن هٰذه المسألة، أولًا بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ الله له حكمة بالغة في جعل الناس منهم الغني ومنهم الفقير، وهو جلَّ وعلا عندما يُمِدّ الإنسان بالمال والثروات ليس هٰذا مقياسًا أو دليلًا علىٰ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أكرمه بذلك، وكذلك عندما يضيّق علىٰ الإنسان أو يقتِّر عليه في رزقه ليس هٰذا دليل علىٰ إهانة الله له ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾[الفجر]. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾[الفجر:١٧]، يعني ليس الأمر كذلك، ليس كون الإنسان وُسِّع عليه في المال دليل إكرامه أو كرامته عند الله؛ قد يكون المال الذي بيده فتنة عليه ومضرَّة عليه، ليس دليلًا علىٰ إكرامه.

وكذلك كون الإنسان تقل ذات يده ويقل حظه ونصيبه من المال ليس ذلك دليل علىٰ إهانته؛ بل جاء في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام: «أن الفقراء يدخلون الجنة قبل أهل الجد قبل أهل المال بخمسمائة عام» فليس فقر الإنسان دليلًا علىٰ أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أهانه؛ ليس دليلًا علىٰ ذلك، وكثرة المال في يد الإنسان ليس دليلًا علىٰ أن تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أكرمه؛ بل الغنىٰ والفقر كلاهما فتنة علىٰ الإنسان، فمن الناس من يُفتن ويُبتلىٰ بالغنىٰ، ومنهم من يُفتن ويُبتلىٰ بالفقر، كل من الغنىٰ والفقر ابتلاء وامتحان، الغني يُبتلىٰ أيكون شاكرًا أم كافرا؟ والفقير يُبتلىٰ أيكون صابرًا أو جازعا؟.

وهناك خلاف معروف بين أهل العلم أيهما أفضل: الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟ يقول ابن القيم رحمة الله عليه: سألت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هٰذه المسألة فقال: (الأكرم منهما الأتقىٰ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإذا استويا في التقوىٰ فهم في الفضل علىٰ درجة واحدة) فليس المقياس في هٰذا الباب غنىٰ الإنسان

وفقره، وإنما المقياس: كرامته عند الله بحسب تحقيقه لتقوىٰ الله جلَّ وعلا، هٰذا من حيث التأصيل العام

ثم أخذ يبين رحمة الله عليه المسألة من ثلاث جهات:

الجهة الأولىٰ: التوجيهات التي تتناول الجميع، التوجيهات العامة التي تتناول جميع الأغنياء والفقراء.

ثم **الأمر الثاني**: التوجيهات التي تخص الأغنياء.

ثم **الأمر الثالث**: التوجيهات التي تخص الفقراء.

فتدرج في بيان أو تقسيم وتوضيح هٰذه المسألة من هٰذه النواحي الثلاث.

الناحية الأولىٰ: التوجيهات العامة التي تشمل الفقراء والأغنياء علىٰ حدّ سواء، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (شرع الشارع الحكيم أولًا أنْ يكونوا إخوانا) من هم؟ الأغنياء والفقراء، أن يكونوا إخوانًا، أي بينهم الأخوة الإيمانية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠] «**كونوا عباد الله إخوانًا** »سواءً منكم الغني أو الفقير أو غير ذلك، «**كونوا عباد الله إخوانًا** »أي متآخين في دين الله، فهٰذا الأمر الأول أن يكونوا إخوانًا، وأن لا يستغل بعضهم بعضًا استغلالًا شخصيًا، أي خارجًا عن نطاق الأخوة الإيمانية، ولهٰذا نلاحظ في الحديث بيان هٰذا الأمر قال: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم علىٰ بيع بعض» كل هٰذه المعاني خارجة عن نطاق الأخوة الإيمانية وما تقتضيه من سلامة الصدور وحسن المعاملات وطيب المعاشرة.

قال: (بل أرشد كل منهم) أي الأغنياء والفقراء (أن يقوم نحو الآخر بواجباته الشرعية التي يتم بها الالتئام وتقوم بها الحياة) هٰذا توجيه عام للجميع، أيضًا من التوجيهات العامة للجميع؛ للفقراء والأغنياء.

قال: (أمر الجميع أن يتوجَّهوا بأجمعهم إلىٰ المصالح العامة الكلية التي تنفع الطرفين، كالعبادات البدنية والمشاريع الخيرية، وجهاد الأعداء ومقاومتهم، ودفع عدوانهم بكل وسيلة) هٰذه كلها أمور عامة مطلوبة من الجميع كل بحسب استطاعته (كل منهم بحسب وسعه وقدرته، هٰذا ببدنه وماله، وهٰذا ببدنه، وهٰذا بماله، وهٰذا بجاهه وتوجيهه، وهٰذا بتعلمه وتعليمه) كل بحسب ما يستطيع في تحقيق المصالح العامة للأمة (لأن الغاية واحدة، والمصالح مشتركة، والغاية شريفة والوسائل إليها شريفة) فإذًا هٰذه الآن توجيهات عامة تتناول الفقراء والأغنياء علىٰ حد سواء، ثم بعد ذلك شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في ذكر التوجيهات التي تختص بالأغنياء فقط.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

قال:

ثم أوجب في أموال الأغنياء فرضًا الزكاة، بحسب ما جاء في تفاصيلها الشرعية، وجعل مصرفها دفع حاجات المحتاجين، وحصول المصالح الدينية المُقيمة لأمور الدنيا والدين، وحثَّ علىٰ الإحسان في كل وقت وفي كل مناسبة، وأوجب دفع ضرورة المضطرين، وإطعام الجائعين، وكسوة العارين، ودفع الضرورات عن المضطرين، وكذلك أوجب النفقات الخاصة للأهل والأولاد، وما يتصل بهم، والقيام بواجبات المعاملات كلها الواقعة بين الناس، وأمرهم مع ذلك أن لا يتكلوا في كسب الدنيا علىٰ حولهم وقوتهم، ولا ينظروا نظر استقرار وطمأنينة إلىٰ ما عندهم؛ بل يكون نَظَرُهم علىٰ الدوام إلىٰ الله وإلىٰ فضله، وتيسيره والاستعانة به، وأن يشكروه علىٰ ما تفضَّل به عليهم وميَّزهم به من الغنىٰ والثروة، وأوجب عليهم أن يقفوا عند الحدود، فلا ينغمسوا في الترف والإسراف انغماسًا يضر بأخلاقهم وأموالهم وجميع أحوالهم؛ بل يكونوا كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾[الفرقان].

وأمرهم مع ذلك أن يكون طلبهم للغنىٰ والدنيا طلبًا شريفًا نزيهًا، فلا يتلوثون بالمكاسب الخبيثة التي هي ما بين ربًا أو قمارٍ أو غرر أو غش أو خداع؛ بل يتقيدون بقيود الشرع العادلة في معاملاتهم كما تقيدوا بذلك في عباداتهم، وأمرهم أن ينظروا إلىٰ الفقراء نظر الرحمة والإحسان، لا نظر القسوة والغلظة والأثرة والبطر والأشر والكبر.

ولهٰذه الإرشادات الحكيمة تكون الثروة الدينية في غاية الشرف وكمال الاعتبار، ويكون الغنىٰ علىٰ هٰذا الوجه وصفًا محمودًا، ونعت كمال ورفعة وعلو؛ لأن الشرع هذَّبه وصفَّاه، فحثَّ علىٰ التباعد عن رذائله، ورغب في اكتساب فضائله.

هٰذه الآن توجيهات تختص بالأغنياء ومن أكرمهم الله ﷻ بالثروة والمال، وهٰذه التوجيهات تتناول نقاطًا عديدة:

الأولىٰ: أنَّ الله ﷻ أوجب في أموال الأغنياء فرضًا الزكاة، بحسب ما جاء في تفاصيلها الشرعية، قال عليه الصلاة والسلام: «فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم» هٰذا افترضه الله الزكاة المكتوبة وجعلها الله ﷻ تعظيمًا لشأنها قرينة للصلاة في كتابه، فلا تكاد تُذكر فريضة الصلاة في القرآن الكريم إلا وتُذكر معها فريضة الزكاة، فهٰذا شيء أوجبه الله ﷻ علىٰ الأغنياء في أموالهم ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾[الذاريات]. هٰذا حق وفرض أوجبه الله جلَّ وعلا، قال: (وجعل مصارفها دفع حاجات المحتاجين وحصول المصالح الدينية المقيمة لأمور الدنيا والدين) هٰذا التوجيه الأول.

الثاني: قال: (وحثَّ علىٰ الإحسان في كل وقت وفي كل مناسبة) تجد النصوص الشرعية تحث علىٰ

الإحسان، علىٰ البذل، علىٰ الإنفاق، وذكر الثواب العظيم والأجور الجزيلة المترتبة علىٰ ذلك.

الأمر الثالث: أوجب دفع ضرورة المضطرين وإطعام الجائعين وكسوة العارين ودفع الضرورات عن المضطرين، هٰذا أوجبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الرابع: أوجب النفقات الخاصة للأهل والأولاد ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[الطلاق:٧].

(أوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النفقات الخاصة علىٰ الأهل والأولاد وما يتصل بهم) أي من خدم أو نحو ذلك، (والقيام بواجبات المعاملات كلِّها الواقعة بين الناس).

قال: (وأمرهم مع ذلك أن لا يتكلوا في كسب الدنيا علىٰ حولهم وقوتهم) يعني لا ينظر الغني في كسبه إلىٰ حذقه أو فهمه أو تجارته، وإنما ينظر إلىٰ فضل الله عليه، لا يقول: أنا جديرٌ بهٰذا، وأنا حقيقٌ به أو ورثته كابرًا عن كابر أو نحو ذلك؛ بل ينظر إلىٰ فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه.

قال: (ولا ينظروا نظر استقرار وطمأنينة إلىٰ ما عندهم) يعني إذا كان عنده ثروة ومال لا ينظر إلىٰ هٰذا المال نظر استقرار وطمأنينة؛ لأن هٰذا المال إما أن يُفارق الغني بجائحة أو نحوها، أو يُفارقه الغني بموت، لن يبقىٰ له هٰذا المال مهما كَثُرَ المال، لن يبقىٰ له، إما أن يُفارق هو المال أو يُفارقه المال، لابد من إحدىٰ المُفارقتين، أما أن يبقىٰ هو وماله لا يكون، لابد من حصول هٰذه المُفارقة.

قال: (ولا ينظروا نظر استقرار وطمأنينة إلىٰ ما عندهم بل يكونوا نظرهم علىٰ الدوام إلىٰ الله وإلىٰ فضله) هٰذا فضل الله، هٰذه نعمة الله، لا يكونون كمن قال الله فيهم: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣] ومن إنكار هٰذه النعمة أن يقول: هٰذا ورثته كابرًا عن كابر، أنا جديرٌ به، أنا حقيقٌ به، أنا أهلٌ لهٰذا أو نحو ذلك؛ بل الواجب أن يقول: هٰذا فضل الله، وهٰذه مِنَّة الله عليّ، لولا فضل الله عليّ لما حصل لي هٰذا المال.

قال: (بل يكون نظرهم علىٰ الدوام إلىٰ الله وإلىٰ فضله وتيسيره) قال: (والاستعانة به) يطلب عون الله دائمًا وأبدًا في هٰذا المال وفي الربح وفي وجوه استعماله والانتفاع به.

قال: (وأوجب عليهم أن يقفوا عند الحدود) أي الحدود الشرعية (فلا ينغمسوا في الترف والإسراف انغماسًا يضر بأخلاقهم وأموالهم وجميع أحوالهم بل يكونوا كما قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾[الفرقان]) أي وسطًا لا إفراط ولا تفريط.

(وأمرهم مع ذلك أن يكون طلبهم للغنىٰ والدنيا طلبًا شريفًا نزيهًا) يعني لا يدخلوا في بيوع محرمة ومعاملات منهي عنها كالربا والغش والسرقة والانتهاب والابتزاز، فلا يتلوثون بالمكاسب الخبيثة التي هي ما بين ربًا أو قمار أو غرر أو غش أو خداع، كل ذلك حرَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا كانت أموالهم قائمةً علىٰ ذلك فهي سُحت و«كل جسد قام علىٰ سحت فالنار أولىٰ به» كما قال عليه الصلاة والسلام (بل يتقيدون بقيود الشرع العادلة في معاملاتهم كما تقيدوا بذلك في عباداتهم) يعني كما أنه مطلوب منهم أن يتعبدوا

الله ﷻ بما شرع متقيدين في العبادة بقيود الشرع وضوابطها، فكذلك هم مطالبون في التجارة والكسب أن يتقيدوا أيضًا بقيود الشريعة.

قال: (وأمرهم أن ينظروا إلىٰ الفقراء نظرة الرحمة والإحسان لا نَظَرَ القسوة والغلظة والأثرة والبطر والأشر والكبر) هٰذا كله نهىٰ الله جل وعلا الأغنياء عنه، وحثَّهم وأمرهم بالرحمة والإحسان والرفق والعطف، ورتب علىٰ ذلك الأجور العظيمة.

قال: (ولهٰذه الإرشادات الحكيمة تكون الثروة الدينية في غاية الشرف وكمال الاعتبار، ويكون الغنىٰ علىٰ هٰذا الوجه وصفًا محمودًا، ونعت كمال ورفعة وعلو لأن الشرع هذّبه وصفّاه فحث علىٰ التباعد عن رذائله ورغَّب في اكتساب فضائله).

بهٰذا يكون رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتهىٰ من ذكر التوجيهات التي تختص بالأغنياء، ثم انتقل بعد ذلك إلىٰ التوجيهات التي تختص بالفقراء.

ونقف الىٰ هٰذا الحد والله تعالىٰ اعلم وصلّ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد واله وصحبه أجمعين.

❊❊❊

[أسئلة المجلس الثالث]

السؤال الأول: متىٰ تُصبح علوم الدنيا والدين من الفروض العينية ؟

الجواب: علوم الدين تكون فرض عين فيما يتعلق بواجبات الدين وفروضه؛ لأن العلوم الدينية يُقسِّمها أهل العلم إلىٰ قسمين:

علم هو فرض عين.

وعلم هو فرض كفاية.

والعلم الذي هو فرض عين: واجبات الدين وفرائضه وما لا يتم الواجب إلا به، فالواجبات الدينية والفرائض التي فرضها الله ﷻ هٰذه تعلُّمها فرض عين؛ لأن العبد لا يمكن أن يقوم بها إلا بهٰذا العلم، وهي واجبة عليه، فالعلم بها والعلم بالغاية التي خلق العبد لأجلها ووجد لتحقيقها وتوحيد الله ومعرفة الشرك لاتقائه، هٰذه كلها فرائض وواجبات عينية علىٰ كل مكلف، أما ما سوىٰ ذلك من علوم الشريعة فهي علوم فرضها الله عَزَّوَجَلَّ فرضًا كفائيًا، بمعنىٰ إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين.

والعلوم الدنيوية تكون فرضًا علىٰ بعض الناس إذا اضطر الناس إلىٰ ذلك، وإلا فهي من الأمور التي إذا قام بها بعضهم سدَّت الحاجة، فهي فروض كفائية إذا قام بها بعضهم كفىٰ الباقين في القيام بهٰذا الواجب.

فإذًا الفرض العيني إنما يكون فقط في واجبات الدين وفرائض الإسلام، وما سوىٰ ذلك فهو فرضًا كفائيًا.

السؤال الثاني: ما هي العلوم الكونية ؟

الجواب: العلوم الكونية: كل العلوم التي تتعلق بهٰذا الكون من علم يتعلق بالإنسان نفسه وما يتعلق بصحته وعافيته، ما يتعلق بهٰذا الكون من: مثلًا علوم البحار أو مثلًا العلوم المتعلقة مثلا بالحيوانات والدواب وبهيمة الأنعام ونحو ذلك من العلوم التي تُفيد الإنسان ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾﴾[الغاشية]. فكل هٰذه العلوم من العلوم التي تُمدح ويُثنىٰ عليها إذا كانت بالضابط الذي مرَّ معنا ذِكره عند الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي: أن يقصد بذلك قوة إيمانه وحُسن صلته بالله تبارك وتعالىٰ والانتفاع من هٰذا الوجه.

السؤال الثالث: كيف يكون التدرج الصحيح في طلب العلم ؟

الجواب: التدرج الصحيح يكون بالبدء أولًا بضروريات الدين وواجباته، وأن يأتي الأمور من أبوابها، فيتدرج، أول ما يبدأ بالفرائض، بالواجبات، وأهل العلم ينصحون المبتدئ أن يبدأ بالأربعين للإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يبدأ بهٰذا الكتاب العظيم لأنه جمع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هٰذا الكتاب جوامع الكلم في جوامع أمور الدين من عقيدة وعبادة وأخلاق، فإذا حفظ المسلم هٰذا الكتاب وفهمه فهمًا جيدًا أصبحت الأمور الأساسية موجودة عنده، الأمور الأساسية والقواعد الأساسية في العقيدة، في الآداب، في الأخلاق موجودة عنده، ثم بعد ذلك ينطلق في تعلم العلم في ضوء المتون الميسرة المختصرة التي جمعها أهل العلم في الفنون، ففي التوحيد هناك متون مختصرة، في الحديث متون مختصرة، في الفقه والأحكام متون مختصرة، يتدرج بذلك شيئًا فشيئًا.

السؤال الرابع: هل يجوز الدعاء بـ«أغثنا يا غوثاه» ؟

الجواب: «أغثنا يا غوثاه» يعني يقصد بذلك الاستغاثة بالله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المغيث ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾[النمل:٦٢].

فالمغيث هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاستغاثة لا تكون إلا به، فكون القائل يقول في دعائه «أغثني يا الله» أو «أنا مستغيث بك يا الله» هٰذه استغاثة صحيحة، و «يا غوثاه» يعني مناداة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهٰذا النداء؛ الذي ينبغي أن يقول «يا مغيث» أو «يا مغيث الملهوفين» أو نحو ذلك، والأولىٰ أن ينادي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائه الحسنىٰ الثابتة في كتابه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، ويكون دعاؤه بأسماء الله في كل دعوة بما يناسبها من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السؤال الخامس: كيف تكون العمرة بالطفل الصغير والطفل الرضيع ؟

الجواب: الطفل الصغير والطفل الرضيع يُحرِم عنه أو ينوي عنه وليه ويؤدي به جميع المشاعر من

طواف وسعي وتقصير، يؤدي ذلك وينوي عنه وله أجر في ذلك، ولا تكون هٰذا العمرة مُجزئةً لهٰذا الصغير عن عمرة الإسلام، لأن عمرة الإسلام وحجة الإسلام لا تكون إلا بعد البلوغ؛ لكن إذا اعتمر به والده أو حج به والده وهو صغيرًا كان لوالده بذلك أجرا.

السؤال السادس: حديث في «السلسلة الصحيحة» للألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرفوعًا «كان داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أعبد البشر»؟

الجواب: ما أذكر الحديث، لكن إذا صحَّ هٰذا الحديث فيُحمل علىٰ أنه أعبد البشر في زمانه وإلا فإن نبينا عليه الصلاة والسلام أكمل الناس عبادة لله «إنَّ أخشاكم وأتقاكم لله أنا» وأكمل الناس تحقيقًا للعبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيكون المعنىٰ في قوله: «أعبد البشر» مثل ما جاء في موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وغيره ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾[الأنعام] مع أنه في الأنبياء قبله وفي الناس قبله من سبقه إلىٰ الإسلام؛ لكن يُحمل ذلك علىٰ أمته أو زمانه أو نحو ذلك، والله تعالىٰ أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ رسول الله.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

المجلس الرابع

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

اللّٰهمَّ إنَّا نسألك علمًا واسعًا ورزقًا طيبًا وعملًا مُتقبلًا.

اللّٰهمَّ علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا وزدنا علمًا.

قال رحمه الله:

وأما ما صنعه الدين الإسلامي مع الفقراء، فقد أمرهم وكل من لم يدرك محبوباته النفسية أن يصبروا ويرضوا بقضائه وتدبيره، وأن يعترفوا أن الله حكيم له في ذلك حِكم، وفيه مصالح متنوعة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾[البقرة].

فنظرهم هٰذا يُذهب الحزن الذي يقع في القلوب فيُحدث العجز والكسل، ثم أمرهم ألا ينظروا في دفع فقرهم وحاجاتهم إلىٰ المخلوقين، ولا يسألوهم إلا حيث لا مندوحة عن السؤال عند الضرورة إلىٰ ذلك، وأن يطلبوا دفع فقرهم من الله وحده لا شريك له بما جعله من الأسباب الدافعة للفقر الجالبة للغنىٰ، وهي الأعمال والأسباب المتنوعة، كل واحد يشتغل بالسبب الذي يناسبه، ويليق بحاله، فيستفيد بذلك تحرره من رق المخلوقين وتمرنه علىٰ القوة والنشاط، ومحاربة الكسل والفتور.

ومع ذلك لا يقع في قلوبهم حسد لأغنياء علىٰ ما آتاهم الله من فضله، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢﴾[النساء].

وأمرهم أن ينصحوا في أعمالهم ومعاملاتهم وصناعاتهم، وألا يتعجَّلوا الرزق بالانغماس في المكاسب الدنيئة التي تُذهب الدين والدنيا.

وأمرهم بأمرين يعينانهم علىٰ مشقة الفقر: الاقتصاد في تدبير المعاش، والاقتناع برزق الله، فالرزق القليل مع الاقتصاد الحكيم يكون كثيرًا، والقناعة كنز لا ينفد وغنىٰ بلا مال.

فكم من فقيرٍ وُفِّق للاقتصاد والقناعة لا يغبط الأغنياء المترفين، ولا يتبرَّم بقلة ما عنده من الرزق اليسير.

فمتىٰ اهتدىٰ أهل الفقر بإرشادات الدين من الصبر والتعلق بالله، والتحرر من رق المخلوقين، والجد والاجتهاد في الأعمال الشريفة النافعة، والاقتناع بفضل الله، هانت عليهم وطأة الفقر وعناؤه، ومع ذلك فهم لا يزالون يسعون في تحصيل الغِنىٰ ويرجون ربهم وينتظرون وعده ويتقون الله، فإنه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[الطلاق].

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ سبق أن تحدث عن مشكلة الغنىٰ ومشكلة الفقر، وذكر كما مرَّ معنا بالأمس التوجيهات العامة التي يلزم الغني والفقير الالتزام بها علىٰ حدٍّ سواء، ثم ذكر التوجيهات التي تختص بالأغنياء، ثم انتقل هنا إلىٰ التوجيهات التي تختص بالفقراء، توجيهات الإسلام للفقير.

ما هي الأمور التي ينبغي عليه مراعاتُها حال فقره؟

وعرفنا بالأمس أنَّ الغنىٰ والفقر كلاهما ابتلاء، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبتلي الغني بالمال والثروة لينظر أيشكر أم يكفر، ويبتلي الفقير بقلة ذات اليد لينظر أيصبر أم يجزع، وكُلٌّ منهما ابتلاء، وغِنىٰ الإنسان ليس دليلًا

علىٰ إكرام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، وفقره ليس دليلًا علىٰ إهانة الله جلَّ وعلا له، وقد مرَّ معنا قول الله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا﴾[الفجر:١٧] أي ليس الأمر كذلك، ليست التوسعة علىٰ الإنسان دليلًا علىٰ إكرامه بهٰذه التوسعة، وليس أيضًا التضييق عليه في قلة ذات يده دليلًا علىٰ إهانة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، وكُلٌّ من الأمرين ابتلاء وامتحان، فمن ابتُلي بالغنىٰ ما الذي ينبغي عليه أن يراعيه وأن يلتزمه من توجيهات؟ هٰذا ما ذكره الشيخ في الكلام الذي مضىٰ معنا بالأمس، وما يتعلق بالفقير وما يختص به من توجيهات هو في هٰذا المتن الذي استمعنا إليه الآن، وقد احتوىٰ هٰذا المتن علىٰ مجموعة عظيمة من التوجيهات المُستمدة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه مما ينبغي علىٰ الفقير أن يراعيها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما ما صنعه الدين الإسلامي مع الفقراء) يعني ما هي توجيهات الدين الإسلامي للفقراء، فذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ سردًا وهي تنتظم نقاطٍ عديدة، ولهٰذا نعرضها علىٰ شكل نقاط ليكون ضبطها وفهمها بشكل أدق.

الأمر الأول: من التوجيهات التي ينبغي علىٰ الفقير مراعاتُها قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقد أمرهم وكل من يدرك محبوباته النفسية أن يصبروا ويرضوا بقضاء الله وتدبيره)، فهده النقطة الأولىٰ، وجَّه الإسلام الفقير إلىٰ التحلي بالصبر عند فقده لمحبوباته، وعند فقره وقلة ذات يده، قال الله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾[البقرة].

فهو في ابتلاء ومحنة، فعليه أن يتلقَّىٰ هٰذه المحنة بالصبر، وعدم التسخُّط والجزع والتشكِّي؛ شكاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ المخلوقين، يحذر من ذلك، بل يتحلَّىٰ بالصبر، والصبر حبس النفس عن الجزع وعن التشكي والتسخط ومنعها من ذلك، وإذا كان الفقير بهٰذه الصفة فاز في فقره بثواب الصابرين، وكان بذلك حالُهُ مثل: الغني الشاكر؛ لأن الغني الشاكر والفقير الصابر إذا كانا سواء في تقوىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فدرجتهما واحدة، كما سبق نقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في ذلك، إذًا النقطة الأولىٰ التي ينبغي علىٰ الفقير مراعاتُها التحلي بالصبر.

الأمر الثاني: (أن يعترفوا أن الله حكيم، له في ذلك حِكم، وفيه مصالح متنوعة) علىٰ الفقير أن يُقر وأن يعترف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيم في تدبيره، وربما كره الفقير الفقر وهو خير له وأنفع له في ملاقاة ربه، قد يأتيه مال طائل فيفتنه ويصرفه عمَّا خُلق له، ولا يُصلحه إلا الفقر، فيكون فقره خيرًا من غناه وأصلح له فيما يلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، ومن عباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من لا يُصلحه إلا الفقر فقد يكون فقره خيرًا له، ولهٰذا نقل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة].

قد يكره الفقير الفقر وهو خيرٌ له، وقد يُحب الغنىٰ وهو شرٌ له، ويكون من نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه بقاؤه

فقيرًا، لأنه لو وقع في يده المال فتنه وصدَّه وصَرَفَه عن طاعة الله، وعن عبادته وعن الخير، فقد يكون فقره خيرًا من غناه، ولهٰذا علىٰ العبد أن يؤمن بأن الله ﷻ حكيم في تدبيره، وعليم بخلقه ﷻ، فإذا نظر هٰذا النظر أنَّ أفعال الله ﷻ كُلُّها عن حكمة، قال: (يُذهب الحُزن الذي يقع في قلبه) إذا قال في نفسه: الله ﷻ حكيم في تدبيره فلعلَّ هٰذا الفقر الذي أنا فيه خيرٌ لي، ولعلَّ هٰذا الغنىٰ الذي تتطلَّع نفسي إليه شرٌّ عليَّ، فيذهب عن قلبه الحزن ويَحِل محله الجِد والنشاط والهمة العالية والسعي في طلب الرزق.

الأمر الثالث: قال: (أمرهم ألا ينظروا إلىٰ دفع فقرهم وحاجاتهم إلىٰ المخلوقين، ولا يسألوهم إلا حيث لا مندوحة عن السؤال عند الضرورة إلىٰ ذلك) فهٰذا الأمر الثالث: أنَّ علىٰ الفقير ألا ينظر في دفع فقره إلىٰ المخلوقين، وألا يتعرَّض لسؤالهم ومد اليد لهم إلا حيث لا مندوحة، لهٰذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنَّ المسألة لا تحل إلا في ثلاث، وما سوىٰ هٰذه الثلاث فما يأخذه سُحتٌ.

الحالة الأولىٰ: أن يُصيب ماله جائحة، فلا يبقىٰ عنده شيء فيضطر للسؤال ويضطر للحاجة.

الحالة الثانية: أن يشهد ثلاثة من ذوي الحِجىٰ أن المسألة حلَّت لمثله.

الحالة الثالثة: أن يصيبه فقر لا يجد معه أي شيء، وما سوىٰ ذلك فهو سُحت.

فالشاهد أنَّ الفقير ينبغي عليه ألا يعرض نفسه أويعرِّض حاجاته للمخلوقين ولا يسألهم إلا إذا اضطر، إذا كانت هناك ضرورة لذلك فإنه حينئذٍ تحل له المسألة؛ إذا كان مضطرًا.

الأمر الرابع والخامس: مما يُوجَّه له الفقير: (وأن يطلبوا دفع فقرهم من الله وحده لا شريك له بما جعله من الأسباب الدافعة للفقر الجالبة للغنىٰ، وهي الأعمال والأسباب المتنوعة، كل واحد يشتغل بالسبب الذي يناسبه، ويليق بحاله، فيستفيد بذلك تحرُّره من رق المخلوقين وتمرنه علىٰ القوة والنشاط، ومحاربة الكسل والفتور) هٰذا يتضمن توجيهين اثنين:

الأول: الاستعانة بالله، ودعاؤه، والإلحاح عليه بالسؤال، والتعوذ به تبارك وتعالىٰ من الفقر وفتنة الفقر، ويسأل الله ﷿ من فضله، وأن يَمُنَّ عليه ﷻ وأن يهبه، ويتوسل إليه بأسماءه: «الوهَّاب» و«المُحسن» و«المنَّان» و«الرزَّاق» ويُلِحُّ عليه تبارك وتعالىٰ بالسؤال.

والتوجيه الثاني: أن يبذل الأسباب ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾[الملك:١٥] يبذل السبب ويجد ويجتهد في العمل والكسب وطلب الرزق بالوجوه المباحة والأمور المشروعة، ويتدرج في العمل حتىٰ لو كان العمل الذي بدأ به عملًا لم يقتنع به أو لا يرىٰ فيه كفايته، أو ما يتوافق مع همته ومطلبه، يرضىٰ به ويعمل إلىٰ أن ينتقل إلىٰ عمل آخر أنفع وأجدىٰ.

الأمر السادس: قال: (ومع ذلك لا يقع في قلوبهم حسد للأغنياء علىٰ ما آتاهم الله من فضله) أن يحذر الفقير من الحسد، لا يكون في قلبه حسد للأغنياء، لأن المال الذي لدىٰ الأغنياء هو مِنَّةُ الله عليهم وفضله ﷻ، فلا يحسدهم علىٰ ذلك، إنْ حسدهم علىٰ ذلك أصبح عدوًّا لنعمة الله علىٰ عباده، ومِنْ

الذي يرضىٰ لنفسه أن يكون بهٰذه الصفة؟.

فإذا أنعم الله ﷻ علىٰ أخيك بمال، أنعم عليه بثروة، أنعم عليه بسعة في الرزق، لا تحسده علىٰ ذلك، هٰذه مِنَّةُ الله عليه، وهٰذا فضل الله عليه، حاسد الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله هو في الحقيقة عدوٌّ لنعمة الله جلَّ وعلا علىٰ عباده، نَعَمْ للإنسان إذا رأىٰ في يد غيره ثروة أن يتمنىٰ مثلها لنفسه، وهٰذه تُسمَّىٰ «الغِبطة» يتمنىٰ مثلها لنفسه إذا كانت الرغبة في ذلك يصحبها نية صالحة، فله ذلك أن يتمنىٰ مثله، أما أن يحسده بكراهية النعمة أو بتمنِّي زوالها عنه أو السعي في زوالها -وهٰذه مراتب الحسد الثلاثة- فهي محرمة ولا يحل له ذلك، لا يحل له أن يكره النعمة التي أنعم الله جلَّ وعلا بها علىٰ عبده، وكراهية النعمة نوع من الحسد، ولا أيضًا يتمنىٰ زوالها عنه، وتمنِّي زوالها حسد، ولا أيضًا يسعىٰ في زوالها عنه، فهٰذا كله لا يحل.

فالأمر السادس مما ينبغي للفقير أن يراعيه: ألا يحسد الأغنياء علىٰ ما آتاهم الله تبارك وتعالىٰ من فضله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾[النساء:٣٢]، وتأمَّل الآية وعظيم نفع التوجيه الذي تضمنته ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لكن اسأل الله من فضله، اسأل الذي أعطاه يعطيك، والذي مَنَّ عليه يَمُنَّ عليك، اسأل الله من فضله، لكن لا تحسده، لا تتمنىٰ هٰذا الشيء الذي عنده أن يكون لك، لا تكرهه، فهي مِنَّةُ الله ﷻ عليه، أنت نفسك لو كانت هٰذه الثروة بيدك لم ترض أن يحسدك حاسد، ولن ترضىٰ أن يتمنىٰ زوالها متمنٍّ، ولن ترضىٰ أن يسعىٰ في زوالها ساعٍ، لا ترضىٰ ذلك، فكما أنَّ هٰذا لا ترضاه لنفسك لو كنت أنت الغني، فلا ترضاه أيضًا للأغنياء، فهٰذا التوجيه السادس للفقراء: ألا يقع في قلوبهم حسد للأغنياء علىٰ ما آتاهم الله من فضله.

الأمر السابع: (أن ينصحوا في أعمالهم ومعاملاتهم وصنائعهم) إذا وُفِّق لعمل من الأعمال، وظيفة من الوظائف، مهنة من المهن، صنعة من الصناعات، تجارة من التجارات، إذا وُفِّق لأي من ذلك فعليه أن يكون ناصحًا في معاملته، أمينًا، وفيًا، صادقًا، حسن المعاملة، فإن هٰذه من أسباب البركة في رزقه، ومن أسباب ثقة الناس به، ومن أسباب نماء ماله، وزيادة الخير عنده، بخلاف من تكون معاملته والعياذ بالله بالغش والكذب والتدليس علىٰ الناس وإساءة الخُلُق معهم ونحو ذلك من المعاملات.

الأمر الثامن: (ألا يتعجلوا الرزق بالانغماس في المكاسب الدنيئة التي تُذهب الدين والدنيا) يعني بعض الفقراء يريد أن يتخلَّص من مشكلة الفقر لكن لا يُبالي بالوسيلة، المهم عنده أن يتخلَّص من مشكلة الفقر، الوسيلة لا يُبالي بها، هل يدخل في ربا؟ لا يهمه بعضهم، لا يُبالي لو ابتزَّ أموالًا أو سرق أو تعدَّىٰ ظُلمًا علىٰ أموال الآخرين، أو ادَّعىٰ لنفسه ما ليس له، لا يبالي أن يُحصِّل أموال الآخرين بالغش،

بالظلم، بالتعدِّي، بالكذب، لا يبالي بذلك، المهم عنده أن يذهب عنه الفقر وأن يصبح ثريًّا وصاحب مال، الطريقة لا يبالي بها.

ولهٰذا ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هٰذا الأمر الذي ينبغي علي الفقير مراعاته: ألا ينغمس في المكاسب الدنيئة التي تُذهِب الدين والدنيا، لا يدخل في أي مكسب دنيء، ولا في أي مكسب محرم، ولا في أي بيع نهىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه، ولا يدخل في ظلم، ولا كذب، ولا غش، ولا تدليس، ولا غير ذلك من المعاملات؛ بل يحرص علىٰ الكسب الذي أباحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له.

ويلتحق بهٰذا الأمر، وهو أمر تاسع وأهم من هٰذا الأمر:أن يحذر -وهي طريقه يسلكها بعض الناس لحل مشكلة الفقر- من الذهاب للسحرة والكهنة والدجَّالين والعرَّافين، وأن يأخذ منهم التمائم والحروز والتعويذات وأشياء من هٰذا القبيل، يفعلها بعض الناس زعمًا وتوهمًا أنَّ فيها حل لمشكلة الفقر، وإذا أراد بعضهم أن يدخل في تجارة ذهب إلىٰ كاهن واستشاره في تجارته أو في سفره أو إلىٰ ساحر أو إلىٰ مشعوِّذ أو إلىٰ دجَّال أو نحو ذلك، فهٰذا هدم للدين وبيعٌ له بأرخص الأثمان والعياذ بالله وإضرار منه بدنياه وأخراه، فيكون بذلك أوبق دنياه وأخراه، فلا يتعلق بمثل هٰذه التعلقات، وأيضًا لا يتعلَّق بالمقبورين كما يفعله بعض الجُهَّال في تجارة أو في بيع أو في حَلٍّ لمشكلة الفقر؛ يتعلق بالمقبورين توجُّهًا لهم، ونذرًا لهم، وتبرُّكًا بهم، وطلبًا منهم، والتجاءً إليهم، فهٰذا كله من الشرك بالله جلَّ وعلا، الذي يهدم دنيا الإنسان وأخراه، فيحذر من ذلك كله.

الأمر العاشر والحادي عشر: قال: (وأمرهم بأمرين يعينانهم علىٰ مشقه الفقر، الاقتصاد في تدبير المعاش، والاقتناع برزق الله، فالرزق القليل مع الاقتصاد الحكيم يكون كثيرًا، والقناعة كنز لا ينفد وغنًىٰ بلا مال) فهٰذان أمران:

الأمر الأول: الاقتصاد في المعاش، أن يوازن معاشه؛ في طعامه، في شرابه، في مسكنه، في ملبسه، في مركبه، علىٰ قدر ذات يده، وهٰذه مهمة جدًّا، كثير من الناس يتعدَّىٰ مرحلة الاقتصاد في المعاش علىٰ قدر ذات اليد إلىٰ الدخول في ديون لا يتحملها، وكل هٰذه الديون مُنصبَّه في كمالات يُمكن أن يستغني عنها ويوازن أموره المعيشية علىٰ قدر ذات يده، فالاقتصاد من الأمور المهمة جدًّا، وبالاقتصاد يصبح القليل كثيرًا، ويُبَارك للإنسان في القليل الذي عنده، أما إذا كانت نفسه شرهة وليست قنوعة ولا راضية بالاقتصاد في التدبير ويتطلَّع إلىٰ ما سوىٰ ذلك فهٰذا يُضِر بنفسه إضرارًا بالغًا، وهٰذا الأمر العاشر.

الأمر الحادي عشر: القناعة، والقناعة هي الرضا بما قَسَمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، وليس الغِنىٰ كما جاء في الحديث بكثرة العَرَض، ولكن الغِنىٰ: غنىٰ النفس، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًىٰ فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحذافيرِها» كأنما أوتي الدنيا بحذافيرها، كأنما حيزت له الدنيا كاملة، إذا كان آمن في سربه؛ له بيت يأوي إليه، وفي صحة وعافية في

البدن، وعنده طعام ذلك اليوم، إذا كان بهٰذه الصفة كأنما حيزت له الدنيا، كأنما اجتمعت الدنيا كلها له، لأن ما زاد عن هٰذه الأمور الثلاثة كله فضلة، كله زيادة عن ضروريات الإنسان وحاجاته الضرورية، فإذًا القناعة شأنها عظيم، ونفعها كبير.

في توضيح الأمر السابق، قال: (فكم من فقيرٍ وُفِّق للاقتصاد والقناعة، لا يغبط الأغنياء المترفين، ولا يتبرَّم بقلة ما عنده من الرزق اليسير) إذا كان قنوعًا يتحقق له هٰذان المطلبان:

الأمر الأول: لا يغبط الأغنياء، لأنه يُحس بالنعمة التي أنعم الله ﷻ بها عليه، والفضل الذي منَّ الله ﷻ به عليه.

ولا يتبرَّم من حال يده لأنه يُحِس بالكفاف وسداد الحاجة وفي نفسه يقول: ما زاد علىٰ ذلك فضلة وزائد عن الحاجة.

الأمر الثاني عشر: ولم يُشِر إليه الشيخ: أن لا ينظر إلىٰ مَنْ هو فوقه، في مثل هٰذا الباب لا ينظر إلىٰ مَنْ هو فوقه، بل ينظر إلىٰ من هو دونه لئلا يزدري نعمة الله عليه، لا ينظر إلىٰ من هو فوقه، لا ينظر إلىٰ من هو أكثر منه مالًا، أكثر منه تجارةً، أفضل منه مسكنًا، ومعيشةً ومركبًا، لا ينظر إلىٰ من هو فوقه، لأنه إنْ نظر إلىٰ من هو فوقه نسي النعمة وازدرىٰ النعمة، لكن ينظر إلىٰ مَنْ هو دونه، إذا نظر إلىٰ من هو أقل منه مالًا وذات يد قال: الحمد لله، وأحسَّ بالنعمة، وإذا نظر إلىٰ من هو فوقه ازدرىٰ النعمة وقال: أنا ما عندي شيء، ولا أملك شيئًا، وينسىٰ نِعم كثيرة، ينسىٰ نعمة الإسلام، ينسىٰ نعمة الصحة ، ينسىٰ نعمة البيت، ينسىٰ نعمة الأمن، ينسىٰ نعمة الولد، ينسىٰ نِعما كثيرة جدًا وتذهب عن فكره وباله إذا أخذ ينظر إلىٰ من هو فوقه، ولهٰذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: « **لا تنظروا إلىٰ من هو فوقكم لئلا تزدروا نعمة الله عليكم**» يعني لا تنتقصوا وتحتقروا وتستهينوا بنعمة الله تبارك وتعالىٰ عليكم.

ثم قال رحمه الله تعالىٰ: (فمتىٰ اهتدىٰ أهل الفقر بإرشادات الدين من الصبر والتعلق بالله، والتحرُّر من رق المخلوقين، والجد والاجتهاد في الأعمال الشريفة النافعة، والاقتناع بفضل الله، هانت عليهم وطأة الفقر وعناؤه، ومع ذلك فهم لا يزالون يسعون في تحصيل الغِنىٰ ويرجون ربهم وينتظرون وعده ويتقون الله) وهٰذا **الأمر الثالث عشر**، من الأمور التي علىٰ الفقير مراعاتها: تقوىٰ الله عز وجل وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[الطلاق].

وتقوىٰ الله عز وجل: «هي العمل بطاعة الله، علىٰ نور من الله، رجاء ثواب الله، وأن يترك معصية الله، علىٰ نورٍ من الله، خيفة عذاب الله».

الأمر الرابع عشر: أن يكثر من الاستغفار عملًا بقوله ﷻ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾[نوح] ولهٰذا إذا أحسَّ العبد بضعف ذات اليد يُكثر من الاستغفار، جاء رجل إلىٰ الحسن البصري رحمه الله يشكو الفاقة والفقر،

قال: استغفر الله، وجاءه آخر يشكو عدم الإنجاب، قال: استغفر الله، وجاءه ثالث يشكو جفاف بستانه، قال: استغفر الله، فقال له رجل عنده: كل من جاءك قلت ل:ه استغفر الله، قال: لم أزد علىٰ القرآن، وتلا قول الله سبحانه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾[نوح].

ثم ذكر الثمرات الدنيوية للاستغفار ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ فالذي يشكو الفقر يستغفر الله كثيرًا، الذي يشكو عدم الإنجاب يستغفر الله كثيرًا، الذي يشكو القحط وقلة الماء وجفاف بستانه وتضرر ماشيته يستغفر الله كثيرًا، فالاستغفار بابٌ عظيم من أبواب البركة وحلول الرزق وسعة النعمة وكثرة الأولاد وغير ذلك من البركات الدنيوية، أما في الآخرة فقد قال عليه الصلاة والسلام :«**طوبىٰ لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا**» وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أكثر الناس استغفرًا، يقول أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو يتحدث عن الصدر الأول من هٰذه الأمة -عن خيارها وأفضلها- يقول: ما رأيت أحدًا أكثر من النبي ﷺ يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، وهو وراءه أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وخيار الصحابة وعُبَّاد الأمة، رأىٰ هؤلاء، يقول: ما رأيت أكثر من النبي ﷺ يقول: أستغفر الله وأتوب إليه، ويُحصىٰ له في المجلس الواحد «أستغفر الله وأتوب إليه» أكثر من مائة مرة، تقول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «ما أصبح رسول الله ﷺ غداة يوم إلا استغفر الله مائة مرة» فكان عليه الصلاة والسلام كثير الاستغفار، فالاستغفار له فوائده العظيمة وآثاره المباركة علىٰ العبد في دنياه وأخراه، له ثمار عظيمة علىٰ العبد في الدنيا من حصول الغنىٰ، حصول البركة في المال، في الرزق، في الولد، في التجارة في غير ذلك، وحصول الثواب العظيم والأجر الجزيل يوم القيامة.

فهٰذه جملة من التوجيهات العظيمة التي مرّت معنا في كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

أيضًا **الأمر الخامس عشر**، من الأمور التي يجب أن يراعيها الفقير: ألا يلتفت للأسباب ولا يعتمد عليها إذا باشر سببًا أو وظيفة أو عملًا أو تجارة أو صنعة، لا يتفت إليها؛ بل يكون اعتماده وثقته وتوكله علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، وفي خاتمة ما ذكر المصنّف قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] فيكون توكله وثقته بالله، يبذل السبب، ويحرص علىٰ الذي ينفعه من تجارة أو صناعة أو غير ذلك، ولا يعتمد علي ذلك، ولا يثق به، إنما تكون ثقته واعتماده وتوكله علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣] وقد وجّه النبي عليه الصلاة والسلام من يخرج من بيته أن يقول في كل مرة يخرج من بيته لحاجة دينية أو دنيوية، أن يقول: «باسم الله، توكلت علىٰ الله، لا حول ولا قوة إلا بالله» قال فيُقال له حينئذٍ: «هُديت وكُفيت ووُقيت» كل هٰذه الأمور الثلاثة تجتمع له، ثم الشيطان الذي يرصده لخروجه لإغوائه وإضلاله والإساءة إليه يقول للشياطين: كيف لكم برجل هُدي وكُفي ووُقي؟! فيكون متوكلًا علىٰ الله مفوّضًا أمره إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، طالبًا مدّه ومنّه وفضله ورزقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله عَزَّ وَجَلَّ هو الرزاق ذو القوة المتين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهٰذه التعاليم الدينية والإرشادات من الله ورسوله لأهل الغنىٰ والفقر، تجلب لهم الخيرات، تمنعهم من الشرور والمضرات، وتنتج لهم أجمل الثمرات العاجلة والآجلة، فهٰذا الحل الوحيد من الرب المجيد لمشكلة الغنىٰ والفقر، وما سوىٰ ذلك فعناء وشقاء، وضرر وهلاك، والله الموفق.

لما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنَّ هٰذا هو الحل لمشكلة الغنىٰ ومشكلة الفقر، وأن هٰذا الحل هو الذي يجلب الخيرات، ويمنع الشرور والمضرات، وأنه ينتج له أجمل الثمرات العاجلة والآجلة، حذَّر من الحلول الفاسدة العاطلة الباطلة، قال: (**فهٰذا الحل الوحيد من الرب المجيد لمشكلة الغنىٰ والفقر، وما سوىٰ ذلك فعناء وشقاء، وضرر وهلاك**) ومن ينظر واقع الناس يجد فعلًا؛ تُطرح حلول لمشكلة الفقر لكنها حلول فاسدة، وفي كثيرٍ منها حلول تجني علىٰ الدِّين، وتضر بعبادة الإنسان، وتوجُّهه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتجد في بعضها غرابة، وفي بعضها نكارة، وفي بعضها إساءة، وفي بعضها عبث بالعقول والأفكار والأفهام، في بعضها تعطيل للهِمم والجد والاجتهاد والنشاط.

يعني من الأمور التي تُذكر وربما تشاهد كحل من الحلول التي يطرحها بعض دعاة الضلال وأئمة الباطل، بعض الناس يجلس في الصباح الباكر معه سُبحة، وتكون أيضًا طويلة، ثم يجلس لا يُسبِّح بها في الصباح وإنما يسحب بهٰذه الطريقة، يمسح السُبحة في الصباح ويسحب باستمرار مرات كثيرًا، أنا رأيت مرة شخصًا يفعل ذلك، وهو ليس تسبيحا قطعًا لأنه يسحب عشر أو عشرين خرزة دفعة واحدة، قطعًا ليس هو تسبيح، ولكن ما هو؟!! هٰذا موضع تساؤل، فسألت شخصًا من المهتدين قال: هٰذا نُسمِّيه جلب الرزق وسحب الرزق، يقول في الصباح: نجلس نسحب الرزق بالسُبحة، وبعد هٰذا نجلس فترة طويلة في الصباح نَجُرُّ السُبحة بهٰذه الطريقة سحبًا للرزق وجلبًا له.

هٰذا الآن عندما وُجِّه هٰذا التوجه حلًا لمشكلته عُطِّل عن العمل، عُطِّل عن ذكر الله، عُطِّل عن الدعاء، عُطِّل عن التسبيح، عُطِّل عن قراءة القرآن، وعُطِّل عن الاستغفار، إلىٰ هٰذا النوع من العبث وضياع العقول والأفهام كحلٍّ لمشكلة فقره.

وهكذا أيضًا يُوجَّه آخرون إلىٰ مشعوذين أوإلىٰ كهنة أو إلىٰ تعليق حروز أو نحو ذلك إما للوقاية من الفقر أو لجلب الغنىٰ أو نحو ذلك من التعاليق الباطلة أو الذهاب إلىٰ القبور للتبرك بها والطلب منها والاستنجاد بالمقبورين، ما بين خرافة إلىٰ بدعة إلىٰ شرك إلىٰ ضلال إلىٰ غير ذلك من الأمور التي تُطرح للجُهَّال حلًّا لمشكلة الفقر، وكل ذلك ضياع في الدين وفي العبادة وفي الخُلُق وفي العقول أيضًا والأفهام.

لٰكِن الحل الصحيح لهٰذه المشكلة في ضوء كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وفي حدود هٰذه النقاط التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجمعها في هٰذا المتن النافع المفيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ونظير هٰذه المسألة، **مسألة: الصحة والمرض.**

فإن الشريعة الإسلامية جاءت بأكمل الأمور فيها؛ أمرت بكل ما يحفظ الصحة ويُنَمِّيها، وما يدفع الأمراض أو يُخَفِّفها بحسب الإمكان، وفصَّلت في هٰذا الموضوع تفاصيل نافعة، تدور علىٰ حفظ الصحة وتنميتها، والحِمية من جميع المؤذيات والأمور الضارَّة، وعلىٰ السعي في التحرُّز من الأمراض قبل نزولها، ومداواتها بعد نزولها، وأمرت مع ذلك بالتوكل علىٰ الله، والاعتماد عليه، والعلم بأنه تعالىٰ هو المعطي للنعم، الدافع للنقم، بلطفه وقدرته ورحمته، وبما جعله من الأسباب الكثيرة التي علَّمها الله العباد، وأمرهم بسلوكها، وأمر أيضًا بمقاومة الأمراض بأمور أخرىٰ غير الأدوية الحِسية، أمر بالصبر لله علىٰ المكاره إيمانًا به، واحتسابًا لثوابه، فإنه بذلك تَخِفُّ مشقة الأمراض بما يحصل للصابر المحتسب من الإيمان واليقين والثواب العاجل والآجل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونظير هٰذه المسألة، مسألة: الصحة والمرض) أي إلىٰ ماذا يُوجَّه الصحيح؟ وأيضًا إلىٰ ماذا يُوجَّه المريض؟ وأيضًا ما هي الحلول الإسلامية والتوجيهات الشرعية لكُلٍ منهما؟

قال: (فإن الشريعة الإسلامية جاءت بأكمل الأمور فيها؛ أمرت بكل ما يحفظ الصحة ويُنَمِّيها، وما يدفع الأمراض أو يُخَفِّفها بحسب الإمكان) ولهٰذا من ينظر إلي السنة في باب الشراب، الغذاء، الطعام، يجد توجيهات عظيمة جدًّا يترتَّب عليها نفع عظيم في باب حفظ الصحة، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ما مُلئ وعاء شر من بطن، بحسب امرئ لُقيمات يُقِمْنَ صُلبه، فإنْ كان ولابد فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لبدنه» هٰذا الحديث أصل عظيم جدًّا بشهادة كثير من الأطباء، ويكفي في ذلك أنَّهُ كلام النبي عليه الصلاة والسلام ولو لم يشهد علىٰ ذلك ولا طبيب واحد، هٰذا أصل عظيم جدًّا في باب حفظ الصحة، والسلامة من الأمراض، قال عليه الصلاة والسلام: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه» فهنا إرشاد إلىٰ أصل عظيم من أصول حفظ الصحة وهي: الحِمية ومراعاة التغذية، وعدم ملء البطن بالأخلاط وأنواع المأكولات والأغذية والأشربة، فقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١] في الكتاب والسنة قواعد وتأصيلات عظيمة جدًا ومباركة، فيها حفظ صحة العبد وحفظ بدنه وحميته بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من الأمور الضارة المؤذية، قال: (أمرت بكل ما يحفظ الصحة ويُنَمِّيها، وما يدفع الأمراض أو يُخَفِّفها بحسب الإمكان، وفصَّلت في هٰذا الموضوع تفاصيل نافعة) ومن أراد أن يقف علي ما جاء في الكتاب والسنة في هٰذا الباب فليقرأ كتاب «الطب النبوي» من «زاد المعاد» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجد في هٰذا الباب علمًا غزيرًا وفوائد جمَّة ومنافع جليلة في باب الصحة وحفظها ومعالجة الأمراض في ضوء ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: (وفصَّلت في هٰذا الموضوع تفاصيل نافعة) يُرجع في هٰذا إلىٰ كتاب «زاد المعاد» أو كتاب

«الطب النبوي» من «زاد المعاد» لابن القيم. قال: (تفاصيل نافعة، تدور علىٰ حفظ الصحة وتنميتها، والحِمية من جميع المؤذيات والأمور الضارَّة، وعلىٰ السعي في التحرُّز من الأمراض قبل نزولها، ومداواتها بعد نزولها) حتىٰ ما يعرف في زماننا بـ«الطب الوقائي» جاء في السنة عن النبي ﷺ أنه قال: «من اصطبح بسبع تمرات من العجوة أو من عجوة العالية - في بعض ألفاظ الحديث- لم يضره عين ولا سحر» أو كما قال عليه الصلاة والسلام، هٰذا طب وقائي وكذلك الأدعية المأثورة والأذكار المباركة التي من واظب عليها لم يضره شيء في يومه، ولم يضره شيء في منامه، فالسنة جاءت بحفظ الصحة وبدفع الأمراض والأسقام وبالتعوذات المباركة، والأدعية النافعة، وجاءت أيضًا بالأدوية، في القرآن والسنة أشفية كثيرة جدًّا لأنواع كثيرة من الأمراض، وقال: (وأمرت مع ذلك بالتوكل علىٰ الله، والاعتماد عليه، والعلم بأنه تعالىٰ هو المُعطي للنعم، الدافع للنقم، بلطفه وقدرته ورحمته، وبما جعله من الأسباب الكثيرة التي علَّمها الله العباد، وأمرهم بسلوكها) فهٰذا أمر عظيم في هٰذا الباب وهو: التوكل علىٰ الله والثقة به واعتقاد أن العافية والصحة والشفاء منه، قال إبراهيم الخليل فيما ذكره الله في القرآن: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[الشعراء:٨٠] وفي دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام في رُقية المريض «اللهم رب الناس مُذهب البأس» وفي رواية «أذهب البأس، واشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يُغادر سقمًا» فالشفاء من الله ﷻ، ومن أسمائه جلَّ وعلا الحسنىٰ «الشافي» أي الذي بيده جل وعلا الشفاء.

قال: (وأمر أيضًا بمقاومة الأمراض بأمور أخرىٰ غير الأدوية الحِسية، أمر بالصبر لله علىٰ المكاره إيمانًا به، واحتسابًا لثوابه، فإنه بذلك تَخِفُّ مشقة الأمراض) المريض عندما يحتسب مرضه كفارة وطهورًا له من مرضه فإنَّ وطأة المرض تَخِفُّ عليه، لأنه يرجو من وراء ذلك أجرًا عظيمًا وثوبًا جزيلًا، هٰذه المعاناة وهٰذه الشِدة يرجو من ورائها شيء عظيم عند الله، رفعة في الدرجات وتكفير للذنوب والسيئات، فتخف عليه وطأة المرض، ولهٰذا من السنة أن يُقال للمريض: «طهورٌ إنْ شاء الله» أي أن يكون في مرضك تطهير لك وتمحيص من الذنوب، فهٰذا مما يُخفف وطأة المرض وشدته، (فإنه بذلك تَخِفُّ مشقة الأمراض بما يحصل للصابر المحتسب من الإيمان واليقين والثواب العاجل والآجل) بل كما ذكر ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، أخذ يعدد للمرض والمصيبة فوائد، عدَّد فوائد عديدة، من ضمنها: أنها تقوي الصلة بالله، قد يكون الإنسان في غفلة، وفي انشغال وفي معاصي وفي آثام، فإذا أصيب بمرض أقعده بدأ يحاسب نفسه، وكثير من الناس كانت توبتهم النصوح ورجوعهم الصادق إلىٰ الله ﷻ علىٰ فراش المرض، فكان مرضه باب خير عليه، باب توبة وإنابة ورجوع إلىٰ الله ﷻ، ودعاء واستغفار، فكان باب خير عليه، وأصبحت هٰذه المضرَّة التي أصابته في بدنه نافعة له كبيرة النفع في دينه وفي صلاح حاله بينه وبين الله ﷻ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكذلك أمر بقوة الاعتماد علىٰ الله عند نزول المصائب والمكاره، وألا يخضع الإنسان ويضعف قلبه وإرادته وتستولي عليه الخيالات التي هي أمراض فتَّاكة، فكم من مرض يسير بسيط عظمت وطأته بسبب ضعف القلب وخوره وانخداعه بالأوهام والخيالات، وكم من مرض عظيم هانت مشقته وسهلت وطأته حين اعتمد القلب علىٰ الله وقويَ إيمانه وتوكله وزال الخوف منه، وهٰذا أمر مشاهد ومحسوس.

هٰذا توجيه عظيم ينبغي أن يُعنىٰ به العبد المؤمن، قال: (وكذلك أمر بقوة الاعتماد علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند نزول المصائب والمكاره) قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾[التغابن:١١] قال علقمة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «**هو المؤمن تُصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويُسلِّم**» فالشاهد: المؤمن إذا قويت ثقته بالله وتوكله علىٰ الله وكان مُحتسبًا وراجيًا ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن هٰذا مما يُهوِّن عليه وطأة المرض وشدة المصيبة.

قال: (وألا يخضع الإنسان ويضعف قلبه وإرادته وتستولي عليه الخيالات التي هي أمراض فتَّاكة) بعض الناس قد يكون مرضه مرضًا يسيرًا وشيئًا سهلًا لكن تستولي عليه الأوهام والأفكار السيئة والواردات التي تَرِد علىٰ قلبه وخاطره فيُنمِّيها، فيعيش في أمراض الوهم، يعيش في أمراض الوهم وأمراض الأفكار السيئة التي تدور في قلبه فتُرهقه إرهاقًا شديدًا مما هو أشد من المرض اليسير الذي أصابه في بدنه.

يعني بعض الناس يصاب بمرض يسير في بدنه، ثم تدخل عليه الأوهام ويبدأ يفكر تفكيرات تُضِر به، تارة يعتقد أنه مسحور، وتارة أنه مصاب بعين، وتارة وتارة ويدخل في أوهام كثيرة، وهو ربما فيه مرض يسير، بشيء من الحمية أوالعلاج اليسير في أيام قليلة ينتهي، لكنه يُمرض نفسه بأوهام وتخيلات تجعل المرض اليسير مرضًا كبيرًا، بالمقابل من الناس من يُوفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويكون مرضه عظيما؛ لكن بما آتاه الله من الثقة به والتوكل عليه والصبر واحتمال الأمور واحتساب الأجر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يهُون المرض عنده، وتخف وطأته عليه؛ بل يكون في حال مرضه في سعادة يجدها في نفسه لا يجدها كثير من الأصحاء الأسوياء.

وقد لقيت مرةً شابًّا أُصيب بحادث، فأصيب بشلل كامل لا يتحرَّك منه إلا رأسه فقط، وعمره ٢٦ سنة، جميع بدنه لا يتحرَّك، لا يتحرَّك منه إلا رأسه فقط، قال لي بالحرف الواحد: «والله إنني أشعر بسعادة، مشيت علىٰ قدمي كثيرًا أبحث عنها لم أجدها» يعنىٰ دخل في مُتع، وفي مُلهيات، وفي أمور، في كذا، يبحث عن هٰذه السعادة، يقول: ما وجدتها، بقول: والله إنني أجد في قلبي سعادة، مشيت علىٰ قدمي كثيرًا أبحث عنها لم أجدها، سعادة الإيمان والطاعة والصبر والرضا والدعاء والإقبال علىٰ الله وذكره

إلىٰ غير ذلك، فمن الناس من يكون مرضه عظيم لكن تخف عليه وطأته بثقته بالله وتوكله علىٰ الله، بالتجاءه إلىٰ الله في طلبه ما عند الله، احتساب الثواب والأجر.

وآخرون يكون مرضهم يسير جدًّا لكنه يتفاقم عندهم بالأوهام والظنون والتخيلات وضعف الثقة بالله والتوكل عليه ﷻ ونحو ذلك، قال: (فكم من مرض يسير بسيط عظمت وطأته بسبب ضعف القلب وخوره وانخداعه بالأوهام والخيالات، وكم من مرض عظيم هانت مشقته وسهلت وطأته حين اعتمد القلب علىٰ الله وقويَ إيمانه وتوكله وزال الخوف منه، وهٰذا أمر مشاهد ومحسوس).

قال رَحِمَهُ اللهُ:

فالدين الإسلامي أمر بالأمرين في وقت واحد: أمر بفعل الأسباب النافعة، وبالاعتماد علىٰ الله في نفعها، وتحصيل المنافع ودفع المضار، بحسب الاستطاعة.

وكذلك النعم، والمسار، والمكاره، والمصائب، جاءت شريعة الإسلام فيها بأكمل الحالات.

قال: (فالدين الإسلامي أمر بالأمرين في وقت واحد: أمر بفعل الأسباب النافعة، وبالاعتماد علىٰ الله في نفعها) وهٰذا كما قال عليه الصلاة والسلام: «احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، ولا تقل لو أنّي فعلت كذا لكان كذا وكذا فإن لو تفتح عمل الشيطان» فالمطلوب من العبد أن يحرص دائمًا وأبدًا علي ما ينفعه في دينه ودنياه، وأن يستعين بالله ويتوكل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: (وكذلك النِّعَم) هٰذه جملة جديدة الآن وموضوع غير موضوع الصحة، قال: (وكذلك النعم، والمسار، والمكاره، والمصائب، جاءت شريعة الإسلام فيها بأكمل الحالات) يعني ماذا جاء في الإسلام فيما يتعلق بالنعمة إذا أكرمك الله بها؟ والأمور السارَّة إذا منَّ الله عليك بها؟ المكاره، الأمر الذي يكرهه الإنسان فيحل به؛ ماذا عليه أن يفعل في مصيبة أصابته؟ ما الموقف الشرعي تجاه ذلك؟ هٰذا ما سيبينه باختصار في كلامه الآتي رَحِمَهُ اللهُ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

أمر الله ورسوله بتلقي النِّعم بالافتقار إلىٰ الله فيها، والاعتراف التام بفضل الله بتقديرها وتيسيرها، وشُكر المُنعم بها شُكرًا متتابعًا، وتصريفها فيما كانت لأجله، والاستعانة بها علىٰ عبادة الله، وألا يكون العبد عندها أَشِرًا ولا بطِرًا، بل متواضعًا شاكرًا ، وأمر العبد أن يغتنم الفرصة النافعة في النِّعم، فيربح عندها أرباحًا عاجلة وآجلة، يغتنم فرصة العافية والصحة والقوة والجِدة والجاه والأولاد، فلا يغبن فيها بحيث تكون نِعمًا حاضرة مؤقتة؛ بل يستخرج منها نِعمًا باقية وخيرًا متسلسلًا ونفعًا مستمرًا.

وفي الحديث: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شُغلك، وغِناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك**» فمتىٰ عرف العبد المقصود من النعم وأنها مجعولة وسائل إلىٰ خيرات الآخرة اجتمع له الأمران: التمتع بها عاجلًا، والاستفادة من خيراتها آجلًا، فيؤدي واجبها ومستحبها، وبذلك تكون نِعمًا حقيقية دينية ودنيوية، عكس حالة المنحرفين عمَّا جاءت به الشريعة الذين يتمتعون بها كما تتمتع الأنعام السائمة، ويتناولونها بمقتضىٰ الشهوة البهيمية، فالنِّعم في حقهم سريعة الزوال وشيكة الانفصال، لا تُعقِبُهُم إلا الحسرة والندامة، والأولون يشاركونهم في التمتع العاجل، وربما زادوا عليهم براحة القلب وطمأنينة النفس، والسلامة من الهلع والجشع.

هٰذا ما يتعلق بأمر النعمة، إذا أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ عبده بها، ما الذي ينبغي أن يكون عليه؟

قال: (أمر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ بتلقي النعم بالافتقار إلىٰ الله فيها) أن يكون دائمًا وأبدًا يشعر بفقره إلىٰ الله واحتياجه إليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾[فاطر] ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي من كل وجه، ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن خلقه من كل وجه، فعلىٰ العبد أن يستشعر دائمًا وأبدًا افتقاره إلىٰ الله واحتياجه إليه، سواءً حال فقر العبد أو حال غناه وسعة ذات يده، يشعر دائمًا وأبدًا بافتقاره إلىٰ الله واحتياجه إليه، وعدم غناه عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طرفة عين، (والاعتراف التام بفضل الله بتقديرها وتيسيرها، وشُكر المُنعم بها شُكرًا متتابعًا) عليك ذلك، إذا أكرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنعمة أن يعترف بفضل الله وان الفضل فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والعطاء عطاؤه، خلاف حال من قال الله عنهم: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣] أي يُنعم الله عليهم بالنعمة فينسبونها إلىٰ غيره، يُنعم الله عليهم بالنعمة فيقول قائلهم: (أنا حقيقٌ بهٰذا) أو يقول قائلهم: (ورثته كابرًا عن كابر) أو نحو ذلك من العبارات التي ليس فيها اعتراف من المُنعَم عليه بالمُنعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفضله ومَنّه، فإذًا يتلقىٰ النعمة بالافتقار، ويتلقىٰ النعمة بالاعتراف بالمُنعِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: (وشُكر المُنعم بها) وهو الله عَزَّوَجَلَّ، وفي الحديث: «إن الله ليرضىٰ عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمدها عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها» قال: (وشُكر المُنعم بها شُكرًا متتابعًا، وتصريفها فيما كانت لأجله) ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[سبأ:١٣] (تصريفها فيما كانت لأجله) أي أن يستعملها في طاعة الله، وما يُقرِّب إليه، وفي الأمور التي أباح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له أن يستعملها فيها.

قال: (والاستعانة بها علىٰ عبادة الله) أن تكون هٰذه النعمة عونًا له علىٰ الطاعة، لا أن تكون شاغلة له عن العبادة، بعض الناس يكرمه الله بقليل من المال فيشغله هٰذا المال عن أداء الصلاة المفروضة، فأيُّ خير في هٰذا المال؟! يُشغله عن فرائض الإسلام أو يستعمل هٰذا المال في المعاصي والآثام والمحرمات والعياذ بالله.

قال: (وألا يكون العبد عندها أشِرًا ولا بطِرًا، بل متواضعًا شاكرًا) بل إذا منَّ الله عليه بالنعمة لا يكون هٰذا دافعًا له للأشر والبطر والتعالي والتكبُّر علىٰ الناس والعُجب بالنفس، بل يتواضع لله ﷻ تواضع الشاكرين.

قال: (وأمر العبد أن يغتنم الفرصة النافعة في النِعم) وهٰذا كلام عظيم جدًّا، (وأمر العبد أن يغتنم الفرصة النافعة في النِعم، فيربح عندها أرباحًا عاجلة وآجلة) يعني يحاول العبد أن يستخرج من النعم نعم كثيرة، وأن يُوظِّف النعم في تحصيل نعم كثيرة، قال: (يغتنم فرصة العافية) وهي نعمة (والصحة) وهي نعمة (والقوة) وهي نعمة (والجدة) أي يجد المال، غنيًّا، وهي نعمة، يغتنم (الجاه) والجاه نعمة، يغتنم الولد، هٰذه كلها نِعم، فيحاول أن يغتنم هٰذه النعم بشيء يلقاه عند الله ﷻ يوم القيامة، كثير من الناس يُنعم الله عليه بهٰذه النِعم: عافية وصحة وغير ذلك، ولكنه يكون مغبون في هٰذه النعمة، «نِعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: **الصحة والفراغ**» عنده صحة وعافية وقوة ونشاط وسعة من الوقت ولكنها تذهب وتضيع سُدىٰ دون أن يُحصِّل فيها شيئًا يلقىٰ الله ﷻ به يوم القيامة، ويُحصِّل عليه ثوابه جلَّ وعلا، قال: (فلا يُغبن فيها بحيث تكون نِعمًا حاضرة مؤقتة) عليه أن يحرص ألا يُغبن في هٰذه النعم، لا يُغبن في نعمة الصحة، بحيث تكون صحته نعمة مؤقتة وإذا انتهت الصحة انتهىٰ كل شيء وانتهت الثمار، بل ينبغي أن يستخرج من صحته نِعما كثيرة يلقىٰ الله بها، عافيته، غناه، جاهه، غير ذلك، كل هٰذه النعم يحاول أن يستغلها، بأن يستخرج منها نعمًا تبقىٰ له ويلقىٰ الله بها.

قال: (بل يستخرج منها نِعمًا باقية وخيرًا متسلسلًا ونفعًا مستمرًا) واستدل لذلك بالحديث، قال عليه الصلاة والسلام: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شُغلك، وغِناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك» هٰذه خمسة أمور الآن: الشباب والصحة والفراغ والغنىٰ والحياة، كل هٰذه نِعم ينبغي علىٰ من أنعم الله ﷻ عليه بها أن يستغلها:

الصحة تتحول إلىٰ مرض.

الشباب يتحول إلىٰ هرم.

الفراغ يتحول إلىٰ شُغُل.

الغنىٰ يتحول إلىٰ فقر.

الحياة تتحول إلىٰ موت.

فإذا لم يستغلها وقت وجودها باستخراج نِعم منها ضاعت عليه وذهبت، وإنْ ندم لم ينفعه ندم، كثير من الكبار المسنين ندم علي الشباب وقال كما قال الشاعر: «ألا ليت الشباب يعود يومًا» لكن لا يعود فيجتهد في استغلال شبابه وفي استغلال صحته، في استغلال عافيته، في استغلال فراغه، في استغلال حياته قوته ونشاطه، بحيث يستخرج نِعمًا تبقىٰ له وتستمر، ويموت وهي باقية، وتكون عُمرا ثانيا للإنسان، الآن فيه كثير من أهل العلم ماتوا لكن لهم عمرٌ ثانٍ بعد موتهم وهو العلم الذي بثوه في الأمة، هٰذا عمر ثانٍ لهم، وأجور تتوالىٰ عليهم في قبورهم، وثواب يتوالىٰ عليهم في قبورهم، ومن العجب أن أمواتًا في قبورهم تتوالىٰ عليهم الأجور كل يوم، وهناك أحياء علىٰ وجه الأرض بقوة وصحة ونشاط ويُحرمون من الأجر كل يوم، ميتٌ في قبره تتوالىٰ عليه الأجور، وهو في قبره كل يوم، ما يمُر يوم إلا ويؤجر ويُثاب علىٰ ذلك، نحن الآن نعتقد ونحسب ونظن أن الشيخ عبد الرَّحمٰن ابن سعدي يؤجر الآن علىٰ هٰذا الكتاب الذي اجتمعنا لدراسته، وهٰذه الفوائد التي استفدناها منه، يؤجر علىٰ ذلك، فكم من ميت في قبره يؤجر أجورًا عظيمة وهو في قبره كل يوم، وكم من إنسان شاب، نشيط، قوي، صحيح، معافىٰ ويُحرم من الأجر كل يوم.

إذًا ينبغي علىٰ الإنسان الصحيح الذي أعطاه الله ﷻ الصحة والعافية أن يستغل ذلك، يستغل شبابه، يستغل صحته، يستغل نشاطه، يستغل قوته، الشباب لا يبقىٰ، والصحة لا تبقىٰ، والمال لا يبقىٰ، والحياة لا تبقىٰ، كلها لا تبقىٰ، كلها تذهب، فإذا اجتهد في استغلالها بالنافع المفيد وبالخير وبما يَسُرُّه أن يلقىٰ الله ﷻ به فهٰذه أكبر غنيمة، أما إذا ضيَّع هٰذه الأمور فهو الخاسر، ويندم فيما بعد ولا يفيده الندم، ويتحسَّر فيما بعد ولا يفيده التحسُّر.

قال: (فمتىٰ عرف العبد المقصود من النِعم وأنها مجعولة وسائل إلىٰ خيرات الآخرة اجتمع له الأمران) انتبه إلىٰ هٰذا التوجيه العظيم، يقول: متىٰ استشعر العبد أن هٰذه النعم مجعولة وسائل، يسأل الإنسان نفسه: لماذا هٰذه الصحة؟! لماذا هٰذه الحياة؟! لماذا هٰذه القوة؟! لماذا هٰذه العافية؟! هي مقصودة لنفسها أو مقصودة لغيرها؟!! إذا تفكَّر المسلم يجد أن هٰذه كلها مقصودة لغيرها، وسائل، والمقصود هو الآخرة وثواب الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات] مقصود وجودك صحيحًا معافىً قويًا نشيطًا، مقصود وجودك عبادة الله ﷻ وكسب ثواب الآخرة، هٰذا هو المقصود، فإذا استشعر العبد أنها مجعولة؛ أي هٰذه النعم وسائل إلىٰ خيرات الآخرة اجتمع له الأمران:

١- (التمتع بها عاجلًا) يعني يستفيد من هٰذه النِعم، يتمتَّع بها تمتُّعًا مباحًا في هٰذه الحياة العاجلة، يتمتع بصحته، يتمتع بعافيته، يتمتع بماله تمتعًا صحيحًا مشروعًا مباحًا.

٢- وأيضًا (الاستفادة من خيراتها آجلًا) لأنه يُحصِّل من ورائها ثوابًا وأجرًا يلقىٰ الله ﷻ به، (فيؤدي واجبها ومستحبها، وبذلك تكون نعمًا حقيقية دينية ودنيوية) هٰذا حال الموفَّقين من عباد الله، أما

الخاسرون فما حالهم؟

٣- قال: (عكس حالة المنحرفين عمَّا جاءت به الشريعة) ما حياتهم؟ (الذين يتمتعون بها) أي بهٰذه النعم (كما تتمتع الأنعام السائمة، ويتناولونها بمقتضىٰ الشهوة البهيمية، فالنعم في حقهم سريعة الزوال وشيكة الانفصال) لن تبقىٰ لهم نعمهم، شبابه لن يبقىٰ، ماله لن يبقىٰ، صحته لن تبقىٰ، كلها تذهب (وشيكة الانفصال) فهو يستغل هٰذه الفترة من الشباب والصحة في التمتُّع البهيمي، ثم ماذا إذا انفصلت عنه هٰذه الأمور؟ إذا ابتُلي بمرض أضرَّ به إلىٰ أن مات أو مات وهو منغمس في شهواته وملذاته ومعصيته لربه، أو أُصيب بمرض عطَّل قدرته علىٰ النشاط وعلىٰ العبادة والعمل أو نحو ذلك.

قال: (فالنِّعم في حقهم سريعة الزوال وشيكة الانفصال، لا تُعقِبُهُم إلا الحسرة والندامة) لا يَعْقُب هٰذا الانغماس في هٰذه الشهوات وهٰذه المحرمات وهٰذه النَّزوات البهيمية إلا الحسرة والندم، (والأولون يشاركونهم في التمتع العاجل) في حدود ما أباح الله ﷻ (وربما زادوا عليهم براحة القلب) لتوضيح كلام الشيخ؛ عندما يعقد مقارنة بين شابٍّ أعفَّ نفسه بزواج مباح، يقضي شهوته بالمباح، ويكون مع أهله في بيته مُتمتعًا وأيضًا راجيًا من الله ﷻ ثوابًا علىٰ ذلك، ويؤجر علىٰ ذلك، علىٰ مؤانسته لأهله ومداعبته لهم، إلىٰ آخر ذلك، كله يؤجر عليه، وآخر شاب في سِنه؛ مال إلىٰ التمتُّع الحرام، وإلىٰ الشهوات البهيمية، فيُمارس ذلك في قلقٍ وفي خوفٍ وفي أمراض يستجلبها لنفسه، وفي جنايات ومضرات يضر بها بنفسه، الشاب المستقيم في مُتعة لا يُعادلها مُتعة، ومع ذلك يؤجر، وذاك في نزواتٍ بهيمية تجلب له أضرارًا في دنياه وفي أخراه.

ولهٰذا يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والأولون) يعني أهل الإيمان والطاعة (يشاركونهم في التمتع العاجل) في الدنيا (وربما زادوا عليهم براحة القلب) يتمتع وقلبه مرتاح، قلبه مطمئن، بخلاف الآخر؛ قلق المعصية وما تجُرُّه عليه من مصائب ومشاكل في الدنيا والآخرة كثيرة، يخاف أن يُطَّلع عليه، يخاف أن يعاقب، يخاف أن يعلم به الناس، أمور كثيرة تُقلق قلبه وهو يقع في المعصية، بينما المستقيم يغلق علىٰ نفسه بابه مع أهله ويدخل في متعة عظيمة ويرجو ثواب الله، لا قلق وأيضًا طمع في ثواب الله ﷻ وفضله جلَّ وعلا، قال: (يشاركونهم في التمتع العاجل، وربما زادوا عليهم براحة القلب وطمأنينة النفس، والسلامة من الهلع والجشع) وهٰذا ما لا يمكن أن يُحصِّله المنحرف عن الجادة السوية والصراط المستقيم.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

❁❁❁

[أسئلة المجلس الرابع]

السؤال الأول: أشكل عليَ كون الغنىٰ والفقر بلاء، وما السِّر في قول النبي ﷺ: «وتعوذوا من الفقر»؟

الجواب: الله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[الأنبياء] فالغنىٰ

امتحان وابتلاء، والفقر امتحان وابتلاء، والفقير يُبتلىٰ بفقره، والغِنىٰ يبتلىٰ بغناه، وإذا نجح في كل منهما فاز الفقير بثواب الصابرين، وفاز الغني بثواب الشاكرين، ومرَّ معنا في الحديث: « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له » فالغني يفوز بثواب الشاكرين، والفقير يفوز بثواب الصابرين، يكون كلٌّ منهما فائز في امتحانه وناجح في اختباره، هٰذا فاز بثواب أهل الشكر، وهٰذا فاز بثواب أهل الصبر.

وأشرت إلىٰ أن أهل العلم اختلفوا أيهما أفضل: الفقير الصابر أو الغني الشاكر؟ هٰذا فاز بالصبر، وهٰذا فاز بالشكر، فأيهما أفضل؟ يقول ابن القيم رحمة الله عليه: سألت شيخ الإسلام عن هٰذه المسألة فقال: أفضلهما أعظمهما تقوىٰ لله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات:١٣] سواء كان غنيًّا أو فقيرًا، الأكرم عند الله الأتقىٰ، فقال شيخ الإسلام: أكرمهما، أعظمهما أتقاهما لله عَزَّوَجَلَّ، قال: فإن استويا في التقوىٰ فهما في درجة واحدة.

السؤال الثاني: إذا تحمَّل رجل حمالة، هل عليه أن يسأل الناس؟

الجواب: إذا كان تحمَّل حمالة لا يطيقها واضطر أصبح في حدود الضرورة، حلت له المسألة.

السؤال الثالث: هل تحديد النسل حلًّا لمشكلة الفقر؟

الجواب: الله عَزَّوَجَلَّ قال في سورة الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء:٣١]، فرزق الأولاد علىٰ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فليس منع النسل حلًا لمشكلة الفقر؛ بل كم من ولد كان سببًا لرزق عظيم علىٰ أهله وأسرته، نشأ والده فقيرًا وأكرمه بابن وُفِّق للتجارة والعمل فأخذ يُنفق علىٰ والديه وعلىٰ إخوانه وعلىٰ أسرته؛ بل أحيانًا يكون الولد في بداية الأمر مُتعِب ، مثل ما قرأت في قصة أحد أهل العلم، كُفَّ بصره صغيرًا وكان والده حالته ضعيفة، عنده بستان صغير يقتات منه هو وأولاده ومشغِّل أولاده كلهم في بستانه يعملون، فكان هٰذا الكفيف مُتْعِبًا لهم؛ لا يستطيع أن يعمل، ومرة يسقط في حُفرة، ومرة يصطدم في نخلة، والأولاد يتابعونه حتىٰ يوجِّهونه، يُعطلهم عن العمل، فكان والده مُتْعَبا منه، فاقترح عليه أحد الناس قال: إذا أنت مُتْعَب منه رحِّله إلىٰ البلد الفلاني فيه مكان يطلبون فيه طلاب العلم، خلّه يطلب العلم، وخرج الصغير عمره ١٢سنة أو ١٣ سنة قبل زمن السيارات علىٰ بعير إلىٰ ذاك البلد وهو يبكي، ولما وصل هناك أخذه أحد العلماء الأفاضل، لقيه وأخذه وعطف عليه وقال له: عندنا مكان لطلبة العلم، إلىٰ آخره ، المهم في خاتِم أمره منَّ الله عليه بعلم وبمال، دخل في بعض التجارات، ومنَّ الله عليه بأموال طائلة، وأصبح ينفق علي إخوانه، كل واحد من إخوانه بني له بيتًا، وينفق علىٰ أهله، وهو كان مُتْعِب لهم في صِغره،لا يدري الإنسان، قد يكون هٰذا الولد الصغير الذي يتعب الإنسان عليه سبب لراحته فيما بعد، راحته وراحة إخوانه، فليس الحل هو أن يُمنع النسل، لكن ما يسمىٰ بـ«تحديد النسل» أو تأخيره بسبب مرض أو عدم قدرة المرأة علي الحمل أو ضعفها أو نحو ذلك من الأعذار

تؤخر الحمل سنة أو سنتين فهٰذا لا بأس به، أما منع النسل بحجة أن هٰذا قضاء علىٰ مشكلة الفقر أو نحو ذلك، هٰذا من الحلول السقيمة السيئة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

السؤال الرابع: قال بعض الفقهاء: من خوارم المروءة عمل الرجل عمل الحلاق والجزَّار، فهل دفع الفقر يكون بإحدىٰ هٰذه الأصناف؟

الجواب: ما فيه حرج، الكسب من هٰذه الأمور وإن كان دون غيره من المكاسب لكن إن لم يتهيأ له إلا مثل هٰذا لا حرج، ولكن في الحلق لا يجوز له أن يحلق اللحية لأن هٰذا حرام، لكن إذا كان يحلق مثل شعر الرأس وكذلك عمل الحجامة، النبي ﷺ احتجم وأعطىٰ الحجَّام أجرًا، فهو أجر مباح وإن كان دون غيره، لكنه مباح، فله أن يعمل بهٰذا العمل ولا حرج عليه.

السؤال الخامس: في بعض البلاد يعلقون صور في المحلات التجارية للصالحين كما يزعمون، وإذا سُئلوا عن ذلك قالوا: لا نعتقد فيهم وإنما لجلب الناس؟

الجواب: جلب الناس أو جلب البركة!! هٰذا كله من الحلول الباطلة التي يطلب بها الناس الرزق والكسب، هٰذه من الحلول التي لا تجوز والله أعلم.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

المجلس الخامس

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

قال الشيخ العلامة أبو عبد الله عبد الرَّحمٰن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما المصائب، فلمَّا كانت لابد منها للخلق ولا أحد يسلم منها، أعدَّ الشارع الحكيم لها عُدَّتها، وأرشد عباده إلىٰ الصبر والتسليم، والاحتساب لثوابها، وألا يتلقَّاها العبد بجزعٍ وخورٍ وضعف نفس، بل بقوة وتوكل علىٰ الله وإيمان صادق، وبذلك تخف وطأتها، وتهون مشقتها، ويحصل من الثواب وزيادة الإيمان أضعاف أضعاف ما حصل من المصيبة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[البقرة]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[الزمر]، ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤] فانظر هٰذه الإرشادات الحكيمة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (وأما المصائب فلما كانت لابد منها للخلق، ولا أحد يسلم منها، أعدَّ الشارعُ الحكيمُ لها عُدَّتها) هنا يتكلم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ويُبين ما جاء في الإسلام من توجيهات مباركة وإرشادات مُسدَّدة لمن أُصيب بمُصاب، والمُصاب عرضة له كل إنسان، والحياة ميدان ابتلاء وما مُلئ بيت فرحة إلا ومُلئ ترحة، فالإنسان عُرضة لهٰذا وعُرضة لهٰذا، والشارعُ الحكيم جاء بأمور عظيمة جدًا، وتوجيهات مباركة يتلقَّىٰ بها المُسلم مُصابه فيُحصِّل خيرات عظيمة في العاجل والآجل، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة] ، فذكر البِشارة ولم يذكر نوعها، ليَعُم كل بِشارة، علىٰ قاعدة أهل العلم رحمهم الله تعالىٰ: (أن حذف المتعلق يُفيد العموم) فقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾، أي بكل خير عاجلٍ أو آجل، فجاء الإسلام مُرشدًا إلىٰ الصبر، إلىٰ الرضا، إلىٰ الاحتساب، إلىٰ البُعد عن الجَزع والتسخُّط، جاء بتوجيهات مباركة يحصل للقلب بها الطمأنينة والراحة، ويذهب عنه انزعاجه وقلقه وتوتره واضطرابه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن:١١]، قال علقمة رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (هو المؤمن يَعْلَم أنها من عند الله فيرضىٰ ويُسلِّم).

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر جملة من الأمور التي ينبغي علىٰ من أُصيب بُمصاب أن يتحلَّىٰ بها وأن يتَّصف بها، قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (فأرشد عباده إلىٰ الصبر والتسليم والاحتساب لثوابها، وألا يتلقَّاها العبد بجزعٍ وخورٍ وضعف نفس) هٰذه ثلاثة أمور يحرص المُسلم علىٰ التحلِّي بها عند المصاب:

الأمر الأول: الصبر، والصبر: هو حبس النفس ومنعها عن كل ما يُسخط الله عَزَّوَجَلَّ، حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكِّي، واليد عن لطم الخدود وشقِّ الجيوب، الصبر: هو الحبس والمنع، وعندما يصاب الإنسان بُمصاب فيتحلىٰ بالصبر فإن معنىٰ ذلك أن يمنع نفسه عن فعل أو قول ما لا يُرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هٰذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: أن يحتسب ثواب ذلك وأجره عند الله، والله ﷻ وعد الصابرين بالأجر الوافر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر] فيحتسب أجر ذلك عند الله ﷻ، وفي الحديث «ما أصاب عبد هم ولا حَزن» إلىٰ أن قال: «حتىٰ الشوكة يُشاكها إلا كتب الله ﷻ له فيها أجر» فيحتسب ذلك كله عند الله ﷻ.

الأمر الثالث: ألا يتلقىٰ العبد مُصَابه بجزعٍ وخورٍ وضعف نفس، بل بقوةٍ وتوكل علىٰ الله وإيمان صادق، وإذا كان في تلقيه لمُصابه بهٰذه الصفة: صابرًا مُحتسبًا، غير جازع، متوكلًا علىٰ الله ﷻ، واثقًا به سبحانه، فإنَّ هٰذا يُثمر أنْ تَخِفَّ وطأة المُصاب علىٰ قلبه، لأن القضية في المصاب لن تنتهي بألمه وشدة وطأته عليه، بل ينتظر وراء ذلك أمورًا يفوز بها في دُنياه وأخراه، فيخف عليه وطأة الأمر، يشعر بأن هناك عِوض وأنَّ هناك أثر، وأنَّ هناك ثواب، وأنَّ هناك موعود كريم عند الله ﷻ، فيطمئن القلب وتخف عليه شدة المصاب، قال: (وبذلك تَخِف وطأتها وتهون مشقتها ويُحصِّل من الثواب وزيادة الإيمان أضعاف أضعاف ما حصل من المصيبة) وهٰذا من فضل الله ﷻ علىٰ أهل الإيمان خاصة، ولهٰذا سيأتي عند المُصنف قول النبي ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سرّاء شكر ؛ فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر ؛ فكان خيرًا له ».

أي أنه في سرَّاءه يفوز بثواب الشاكرين، وفي ضراءه يفوز بثواب الصابرين، فهو فائز في كلتا الحالتين، قال النبي ﷺ: «وذلك لا يكون إلا للمؤمن» ثم أورد ؒ تعالىٰ بعض الآيات في تجلية هٰذا الأمر وبيانه:

الأولىٰ: قول الله تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٥٥] وهٰذه كُلها مصائب، العبد عُرضة للابتلاء بها، قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦﴾ [البقرة] وهٰذه كلمة يُشرع أن يقولها المُسلم عند كل مُصاب، وأن يُبادر إليها، ليفوز بالعِوض العظيم في الدنيا والآخرة، أن يقول عندما يُصاب بمُصاب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ و﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: أي أنا لله عبْد مُدبَّر، طوع تدبير سيده ومالكه وخالقه سبحانه، مشيئة خالقه فيه نافذة، وقدرته عليه شاملة، ولا قدرة للعبد علىٰ شيء إلا بما شاءه الله ﷻ، فأنا لله عبد.

﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾: أي أنا لله راجع، لن أبقىٰ في هٰذه الحياة ولن أُخلَّد فيها، ولن أبقىٰ مع هٰذه المُتع، وكل ذلك سأُفارقه، أنا راجع إلىٰ الله، وإذا رجعت إليه حاسبني علىٰ ما قدَّمت في هٰذه الحياة، ومما سيُحاسبني عليه: ماذا سأفعل عند المُصاب الذي ابتلاني وامتحنني به، أأجزع أم أصبر؟!

فإذا قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ متدبرًا لمعناها عاقلًا دلالتها، محققًا الإيمان بها سلىٰ بإذن الله، ولهٰذا أعظم ما يسلو به المصاب قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، إذا قالها عن عقلٍ لمعناها ومعرفة بدلالتها وتحقيقًا للإيمان بها وما تقتضيه؛ لأن هٰذه الكلمة عندما يقولها مُستشعرًا معناها تجلب لقلبه

إيمانًا بالعبودية، وتحقيقًا للذُل والافتقار، وأيضًا تَذَكُّرًا للبعث والقيام بين يدي رب العالمين، والمُجازاة والحساب فيُشغل بهٰذه الأمور عن المصاب الذي ألَمَّ به، يُشغل قلبه بالإيمان، وهٰذا هو معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١] من يكون عند مُصابه محققًا الإيمان بالله ﷻ، فإن الله ﷻ يهدي قلبه إلىٰ كل خير، وإلىٰ كل فضيلة، وإلىٰ الراحة والطمأنينة وذوق لَذَّة الإيمان وحلاوته.

وأورد قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾[الزمر] وهٰذه إذا ذكرها المُصاب وتلقَّىٰ مُصَابه بالصبر فإنه يرجو علىٰ ذلك أجره عند الله ﷻ بغير حساب، كما وعد الله جلَّ وعلا الصابرين بذلك.

وأورد كذلك قول الله ﷻ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤] وهٰذا موضع الشاهد، أي فرق بينكم أيها المؤمنون وبين الكفار؛ أنكم كلكم يحصُل له الألم، لكن الكافر لا يرجو شيئًا عند الله من وراء ذلك؛ لأنه فاقد الإيمان بالله وفاقد الإيمان بالجزاء والحساب وملاقاة الله والثواب، ولهٰذا ليس في قلبه رجاء عند مُصَابه، بينما المؤمن عند مُصَابه يرجو من الله ﷻ شيئًا لا يقع في قلب الكافر مثله، فهٰذا الرجاء الذي يقع في قلب المؤمن بإذن الله ﷻ يكون سلوةً له.

عاد سلمان الفارسي رضي الله عنه مريضًا فقال له- فيما يتعلق بمرضه-: «**هو كفارة ومُسْتَعْتَب**» للمؤمن كفارة ومُسْتَعْتَب، المؤمن إذا أصيب بمُصاب فإنَّ المُصاب كفارة له، كما قال النبي ﷺ لذاك المريض «طهورٌ إنْ شَاء الله» أي مُطهِّر لك، فالمرض في حق المؤمن كفارة، و«مُسْتَعْتَب»: أي فرصة له أن يُعاتب نفسه، وأن يلومها، وأن يحاسبها علىٰ تقصيرها، قال: «كفارة ومستعتب».

قال: (وأما مَثَل المنافق إذا مرض فمَثَل البعير عَقله قومه ثم أطلقوه-أو عقله أهله ثم أطلقوه- فلا يدري فيما عُقل ولا يدري فيما أُطلق) يعني يمشي صحيحًا المنافق ثم يمرض وينْهَدّ جسمه ويقوم لا يدري لِمَ عُقل؟ ولِمَ أُطلق؟ بينما المؤمن إذا أصابه المصاب يقوم في قلبه من معاني الإيمان ومعاني الإخلاص ومعاني الرجاء ما يكون في مُصابه خيرٌ عظيم له، وفوائد عديدة، يستفيدها من المُصاب نفسه، ففرق بين أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق، قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾[النساء:١٠٤] هٰذه ميزة أهل الإيمان ونعمة الله ﷻ عليهم.

لما أنهىٰ رحمه الله وتعالىٰ الكلام علىٰ ما يتعلق بالحل في الإسلام فيما يتعلق بالنعمة وما يتعلق بالمصاب وما يتعلق بالفقر وما يتعلق بالغنىٰ وغير ذلك، ختم هٰذا الفصل بخاتمةٍ قال فيها:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فانظر هٰذه الإرشادات الحكيمة في هداية الشريعة، إلىٰ تلقي النعم والمسار والمصائب والمضار، كيف ترىٰ القلوب فيها مُطمئنة، والحياة طيبة، والخير حاصلًا ومأمولًا، والربح مستمرًا «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» فأين هٰذه الحالة الجليلة العالية من حالة المنحرفين عن الدين، الذين إذا أصابتهم النِعم بطروا ومرحوا مرح البهائم وتجبروا علىٰ عباد الله، وطغوا وبغوا، وإذا أصابتهم المكاره جزعوا وضعفوا، وربما أدَّت بهم الحال للانتحار؛ لعدم الصبر وللهلع والجزع الذي لا يحتمل، نسأل الله العافية.

هٰذه خاتمة تتعلق بكل ما سبق، فهو يدعو بعد هٰذا البيان والإيضاح أن يُعيد الإنسان النظر والتأمُّل في هٰذه الإرشادات العظيمة الحكيمة في هدايات الشريعة، هدايات الشريعة إلىٰ تلقي النعم والمسار والمصائب والمضار، والمؤمن ميَّزه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بميزة ألا وهي: أنه في كل أمر ينوبه يفزع إلىٰ الإيمان، ويسير في ضوء هداياته، فإذا جاءه -علىٰ سبيل المثال- أمر سار مُفرح لقلبه وفزع إلىٰ إيمانه:

- يهديه إيمانه إلىٰ أن المُنْعِم هو الله.
- يهديه إيمانه إلىٰ تحريك اللسان والقلب بحمد الله والثناء عليه.
- يهديه إيمانه إلىٰ استعمال النعمة في طاعة الله وما يُقرِّب إليه.

فيفتح له إيمانه أبوابًا وآفاقًا من الخير تنطلق من هٰذه النعمة التي أكرمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها.

إذا وُفِّق إلىٰ عبادة من العبادات وطاعة من الطاعات، يفزع أيضًا لإيمانه فيهديه إيمانه إلىٰ أن هٰذه الطاعة مِنَّة الله وتوفيقه، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[النور:٢١] فيزداد ذُلًّا وخضوعًا وطواعية وامتثالًا لأوامر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، إذا وقع في ذنب ومعصية فزع إلىٰ إيمانه فهداه إيمانه إلىٰ الإنابة إلىٰ الله، والتوبة إليه، وكثرة الاستغفار، والندم علىٰ ما اقترفه من إثم وخطيئة.

أيضًا إذا أُصيب بمُصاب فزع إلىٰ إيمانه، فهداه إيمانه إلىٰ الصبر، وإلىٰ الاحتساب، وإلىٰ الرضا، وإلىٰ طلب موعود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإذًا نجد الإيمان يُصاحب المُسلم الصادق في المسار والمضار، وفي المُفرحات والمُحزنات، وفي السرَّاء والضرَّاء، وفي المرض والصحة، وفي الغِنىٰ والفقر، في كل أحواله يصاحبه إيمانه مُسدِّدًا له وهاديًا له إلىٰ كل خير وفضيلة.

قال: (كيف ترىٰ القلوب؟) أي قلوب أهل الإيمان (فيها مُطمئنة والحياة طيبة والخير حاصلًا ومأمولًا، والربح مستمرًّا) أي في كل الأحوال، وفي كل التقلبات، في مصيبة، في نعمة، في أمر سار، في أمر مُحزن، في كل أمر يتقلب فيه المؤمن في هٰذه الحياة، يسوقه إلىٰ الفضائل والربح والكمالات، واستشهد علىٰ ذلك بالحديث «عجبًا لأمر المؤمن» وانتبه بدأ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هٰذا الحديث بقول «عجبًا للمؤمن»،

وختمه بقوله: «وذلك لا يكون إلا للمؤمن» لأن هٰذه خاصة أهل الإيمان، وميزتهم التي أكرمهم الله ﷻ بها «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابته سرّاء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر؛ فكان خيرًا له، وذلك لا يكون إلا للمؤمن » أي هٰذه خاصة المؤمن وميزته، في سرائه شاكر، وفي ضرائه صابر، في سرائه يفوز بثواب الشاكرين، وفي ضرائه يفوز بثواب الصابرين، فهو فائز في كلتا الحالتين، سواء الذي عنده مصاب أو كان الذي عنده نعمة، هو في كلتا الحالتين فائز، هٰذا المؤمن.

أما المنحرف -عياذًا بالله- فحالته أخرىٰ، قال الشيخ: (فأين هٰذه الحالة الجليلة العالية من حالة المنحرفين عن الدين؟) وما هي حالة المنحرفين عن الدين في السراء والضراء؟ قال: (الذين إذا أصابتهم النِعم) أي الأمور السارة المُفرحة (بطروا ومرحوا مرح البهائم وتجبروا علىٰ عباد الله وطغوا وبغوا) هٰذا حالهم، يتلقون النعم بالأشر والبطر، وجحد نعمة المنعم وعدم الاعتراف بها ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾[النحل:٨٣] فيتعالىٰ ويتكبر «أنا حقيقٌ به» «ورثته كابرًا عن كابر» «أنا جديرٌ بهٰذا» «أنا أهلٌ له» يتعالىٰ علىٰ عباد الله ويتكبَّر، هٰذا في الأمور السارة.

وإذا أصيب بمُصاب وبلاء تلقَّاه بالجزع وضعف القلب ووهن الإيمان والتسخط ونحو ذلك، قال: (وإذا أصابتهم المكاره جزعوا وضعفوا، وربما أدَّت بهم الحال إلىٰ الانتحار) من المصاب الذي داهم قلبه وأقلق نفسه، فلم يحتمل لأنه ليس عنده إيمان يحتمل به المصاب، ولهٰذا يُفضي به الأمر إلىٰ الانتحار، ولهٰذا يكثر الانتحار في الكفار كثرةً شديدة لأنه يريد أن يتخلص من مصابه، ولا يدري ما وراء ذلك، ويكثُر أيضًا فيمن ضعف إيمانه ضعفًا، شديدًا فذهب عن الإيمان الصبر، ذهب عن الإيمان الرضا، ذهب عن القلب التوكل والثقة بالله، فإذا ذهبت هٰذه المعاني ربما وصل الأمر بالإنسان إلىٰ عدم الاحتمال فيرىٰ أن الحل هو الانتحار ليس إلا، بينما الانتحار ليس هو الحل، الانتحار هو زيادة المصاب أضعافًا مُضاعفة، «من قتل نفسه بحديدة فإنه يجأ نفسه بها في نار جهنم خالدًا فيها»، ويُعذَّب بالذي قتل نفسه به أيًا كان، فليس الانتحار هو الخلاص، الانتحار هو وقوع في الهلكة بأشد ما تكون الحال عياذًا بالله، قال: (لعدم الصبر وللهلع والجزع الذي لا يحتمل) معه لا صبرًا ولا احتسابًا ولا غير ذلك من معاني الإيمان.

فإذًا نعمة الله ﷻ علىٰ المؤمن بالإيمان عظيمة لأن الإيمان مفزعٌ له في المسار والمضار، في النعم وفي النقم، وفي الأحوال كلها يفزع إلىٰ إيمانه، فيهديه إيمانه إلىٰ التي هي أقوم، ثم ختم الكتاب بالحديث عن مشكلتين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المشكلتان الرابعة والخامسة: السياسة الداخلية والخارجية وتوابعها

قد قررت شريعة الإسلام مسائل السياسة أكمل تقرير، وهدت إلىٰ جميع ما ينبغي سلوكه مع المسلمين ومع غيرهم بأحسن نظام وأعدله، وجمعت فيه بين الرحمة والقوة، وبين اللين والشفقة، والرحمة بالخلق، مهما أمكنت الأحوال، فإذا تعذر ذلك استُعملت القوة بحكمة وعدل، لا بظلم وعنف، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾[النحل].

فأمر الله بالعدل مع كل أحد، وبالإحسان والرحمة في كل أحد، وخصوصًا القرابة ومن لهم حق علىٰ الإنسان، ونهىٰ عن الفحشاء والبغي علىٰ الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وأمر بوفاء العهود والمحافظة عليها، وحذَّر من نقضها، وهٰذه الأمور المأمور بها والمنهي عنها، منها ما هو واضح جلي عيَّنت علىٰ المسلمين سلوكه ولم تجعل لهم في ذلك خيرةً ولا معارضة، وهي التي نصَّ الشارع علىٰ أعيانها ولم يكِل بيانها إلىٰ أحد، فهٰذا النوع يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[الأحزاب]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء]، ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩]، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[الشورىٰ:١٠] وقد تتبع هٰذا النوع العظيم فوجد ولله الحمد مطابقًا للعدل والحكمة، موافقًا للمصالح، دافعًا للمفاسد.

والقسم الثاني: الأمور المُشتبه في أصلها، أو في تطبيقها علىٰ الواقع، وإدخال الأمور الواقعة فيها نفيًا وإثباتًا، وطلبًا وهربًا، فهٰذا قد أمروا أن يتشاوروا فيه، وينظروا فيه من جميع نواحيه، ويتأملوا ما يتوقف عليه من الشروط والقواعد، وما يترتب عليه من الغايات والمقاصد، ومقابلة المصالح والمضار وترجيح الأصلح منها، قال تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران:١٥٩]، وقال تعالىٰ عن جميع المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورىٰ:٣٨].

وهٰذا النوع قد وسَّع الشارع فيه الأمر، بعدما قرر القواعد والأُسس الموافقة لكل زمان ومكان، مهما تغيَّرت الأحوال وتطوَّرت الأمور، فالقواعد الشرعية إذا سلكت في كُليات الأمور وجزئياتها، صلحت بها الأمور، واستقامت الدنيا والدين، وصلحت أمور العباد، واندفعت الشرور والمضار عنهم، ولكنها تحتاج إلىٰ عقد مجالس تجمع الرجال العقلاء الناصحين، أولي العقول الرزينة والأحلام الواسعة، والرأي المصيب، والنظر الواسع، وتُبحث فيها القضايا الداخلية واحدةً بعد واحدة، بحثًا يشمل نواحي

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

القضية، وتصورِها كما ينبغي، وتصور ما تتوقف عليه، وتتم به إن كانت مقصودًا تحصيلها، وتصور ما يترتب عليها من الفوائد والمصالح الكُلية والجُزئية، وبحث أحسن طريق لتحصيلها وأسهله، وبحث القضايا الضارة التي يُطلب دفعها بتتبع أسبابها وينابيعها التي تسرَّبت منها، وحسمها بحسب الإمكان، ثم السعي في إزالتها بالكُلية إن أمكن، وإلا بتخفيفها وتلطيفها، قال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦]، فقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم».

هنا يتحدث رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في خاتمة الكتاب عن مثال آخر من الإشكالات أو المشاكل التي جاء الإسلام بحلها والهداية فيها للتي هي أقوم، وهي: مشكلة السياسة الداخلية والخارجية، سياسة الدول الداخلية والخارجية.

الداخلية: فيما يتعلق بين أفراد الدولة من أهل الإسلام والإيمان.

والخارجية: في التعامل مع الأعداء.

فبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإسلام جاء بالتوجيهات العظيمة والإرشادات السديدة التي تُرشد أمة الإسلام للتعامل في ضوئها، في سياستها الداخلية وسياستها الخارجية، وذكر في البداية قواعد كُلية وأصول جامعة ينبغي أن تكون متوافرة في أهل الإيمان، وأن يكونوا متصفين بها.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (قد قررت شريعة الإسلام مسائل السياسة أكمل تقرير، وهدت إلىٰ جميع ما ينبغي سلوكه مع المسلمين ومع غيرهم بأحسن نظام وأعدله، وجمعت فيه بين الرحمة والقوة، وبين اللين والشفقة والرحمة بالخلق مهما أمكنت الأحوال، فإذا تعذَّر ذلك استُعملت القوة بحكمة وعدل) يعني ليست القوة هي التي يُصار إليها ابتداءً وإنما هي آخر حل، بينما قبلها شفقة ورحمة ولُطف ودعوة ورفق وغير ذلك من المعاني التي دعت إليها الشريعة.

وذكر مُستدلًا قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل].

هاتان الآيتان فيهما سياسة، التي ينبغي أن يكون عليها المُسلم في تعاملاته، بل هي أعظم الأُسُس في السياسة التي ينبغي أن يمضي عليها المُسلم في حياته.

ولخَّص المعاني التي في الآية، قال: (فأمر الله بالعدل مع كل أحد، وبالإحسان والرحمة لكل أحد، وخصوصًا القرابة) لأنه قال في الآية ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ (وخصوصًا القرابة ومن لهم حق علىٰ الإنسان، ونهىٰ عن الفحشاء والبغي علىٰ الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وأمر بوفاء العهود والمحافظة عليها، وحذَّر من نقضها) هٰذه كلها سياسة، وتدابير عظيمة، إذا مضىٰ أهل الإسلام عليها وساروا في ضوءها حققوا كل خيرٍ وفضيلة، قال: (وهٰذه الأمور المأمور بها والمنهي عنها) لأن

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

الآية جمعت بين أوامر ونواهي، قال: (وهٰذه الأمور المأمور بها والمنهي عنها، منها ما هو واضح جلي عيَّنت علىٰ المسلمين سلوكه ولم تجعل لهم في ذلك خيرةً ولا معارضة، وهي التي نصَّ الشارع علىٰ أعيانها ولم يَكِل بيانها إلىٰ أحد) قسَّم رَحِمَهُ اللَّهُ الأمور التي دلت عليها الشريعة في هٰذا الباب إلىٰ قسمين:

- قسمٌ ورد في النصوص التنصيص عليه، فهو أمر واضح، عيَّنت الشريعة فعله، لأنه نُص عليه، وجاءت الأدلة تنصُّ علىٰ من يفعل هٰذا الأمر تحديدًا، أي لا مجال للاجتهاد في هٰذه المسألة.
- والقسم الثاني: المسائل التي ليس فيها نص، فتكون محل النظر والاجتهاد واستنباط الحُكم واستخراجه من أدلة الشريعة العامة وقواعدها الكُلية.

فالأمور علىٰ قسمين: أمور نُصَّ عليها بأعيانها وبُينت أحكامها تنصيصًا في الشريعة، فهٰذه يتعين علىٰ كل مُكلّف لزومها كما نُصَّ عليها وكما أُمر بها.

والقسم الثاني منها: أمورٌ لم يأت فيها نص فيُنظر في معرفة حُكمها وطلب حكمها في أدلة الشريعة العامة وفي قواعدها الكلية الجامعة.

عن النوع الأول الذي هو جاء التنصيص عليه، قال: (فهٰذا النوع يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦] وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[النساء] وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩] وقوله: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الشورىٰ:١٠]. وقد تُتبع هٰذا النوع العظيم فوجد ولله الحمد مطابقًا للعدل والحكمة موافقًا للمصالح دافعًا للمفاسد).

النوع الثاني: الذي لم يأت فيه نص، فهٰذا يكون محل بحثٍ واجتهاد، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (والقسم الثاني: الأمور المشتبه في أصلها) أي دليلها الذي تستنبط منه (أو في تطبيقها علىٰ الواقع وإدخال الأمور الواقع فيها نفيًا وإثباتًا وطلبًا وهربًا) أي لا يُدرىٰ عن طلب الشارع لها، هل هو يثبت أو ينفي؟ هل هو يُرغِّب أو يُرهِّب ويُحذِّر؟ بمعنىٰ أن تكون المسألة بحاجة إلىٰ نظر وإلىٰ بحث وإلىٰ دراسة وإلىٰ اجتماع لأهل الحل والعقد وتبصُّر في الأمر، ومثل هٰذه الأمور يجب أن يُرجع فيها إلىٰ الأئمة الأكابر، والعلماء الراسخين، حتىٰ يتحقق فعلًا الاستنباط الصحيح، والمعرفة الدقيقة بالحكم الشرعي في ضوء قواعد الشريعة الكلية وأدلة الشرع العامة، وفي الآية الكريمة قال: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[النساء:٨٣] فالرد إنما يكون لأهل العلم الراسخين؛ الذين عندهم الأهلية للاستنباط واستخراج الأحكام، والمعرفة بأدلة الشريعة العامة وقواعدها الكُلية.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فهٰذا قد أُمروا أن يتشاوروا فيه) يعني أمروا، ليس عامة الناس وإنما أهل الحل والعقد

والعلماء الراسخين، أهل البصيرة (أمروا أن يتشاوروا فيه، وينظروا فيه من جميع نواحيه، ويتأملوا ما يتوقف عليه من الشروط والقواعد، وما يترتب عليه من الغايات والمقاصد، ومقابلة المصالح والمضار وترجيح الأصلح منها) واستدل لذلك بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران:١٥٩] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى:٣٨] (وهٰذا النوع قد وسَّع الشارع فيه الأمر، بعدما قرر القواعد والأُسس الموافقة لكل زمان ومكان، مهما تغيَّرت الأحوال وتطوَّرت الأمور، فالقواعد الشرعية إذا سلكت في كُليات الأمور وجزئياتها، صلحت بها الأمور، واستقامت الدنيا والدين، وصلحت أمور العباد، واندفعت الشرور والمضار عنهم، ولكنها تحتاج إلىٰ عقد مجالس) أي من أهل العلم الراسخين، أولي الأمر، أهل البصيرة أو الفقه في دين الله، وهٰذا فيه أن النوازل والأمور التي لا يكون واضحًا حكمها، لا ينظر فيها العالم نظرًا منفردًا، أما العامي وطالب العلم فليس أهلًا أن ينظر فيها أصلًا، لكن العالم يجتمع مع إخوانه أهل العلم ويتشاورون ويتدارسون ويتبصَّرون في الأمر، ويوازنون في ضوء القواعد التي أشار إليها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، أما إذا دخل أفراد الناس وعوامهم وطلاب العلم المبتدئين في هٰذه النوازل؛ كلٌّ يُفتي، وكلٌّ يُدلي بدلوه يصبح أمر الناس في مريج، وحالهم فوضىٰ، والقرارات التي تُطرح قرارات متناقضة وأشياء متصادمة، فينشأ فساد عريض، بينما إذا رُدَّ الأمر إلىٰ العلماء الراسخين، واجتمع أهل العلم، خرج الجميع بحلٍ شرعي مُستمد من قواعد الشريعة وأصولها الكُلية، وهٰذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه أمة الإسلام.

قال: (ولكنها تحتاج إلىٰ عقد مجالس تجمع الرجال العقلاء الناصحين، أولي العقول الرزينة والأحلام الواسعة، والرأي المصيب، والنظر الواسع، وتُبحث فيها القضايا الداخلية واحدةً بعد واحدة، بحثًا يشمل نواحي القضية، وتصورِها كما ينبغي، وتصور ما تتوقف عليه، وتتم به إن كانت مقصودًا تحصيلها، وتصور ما يترتب عليها من الفوائد والمصالح الكُلية والجُزئية، وبحث أحسن طريق لتحصيلها وأسهله، وبحث القضايا الضارة التي يُطلب دفعها بتتبع أسبابها وينابيعها التي تسرَّبت منها، وحسمها بحسب الإمكان، ثم السعي في إزالتها بالكُلية إن أمكن، وإلا بتخفيفها وتلطيفها، قال تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]، فقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم»).

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومن أعظم الأصول الشرعية حث المسلمين على القيام بدينهم، والقيام بحقوق الله وعبوديته، والقيام بحقوق العباد، والحث على الاتفاق واجتماع الكلمة، والسعي في أسباب الأُلفة والمحبة، وإزالة الأحقاد والضغائن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠]، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[آل عمران:١٠٣]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ①﴾[الأنفال]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[آل عمران:١٠٥]، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾[آل عمران:١٠٣] إلى غير ذلك من النصوص الدالة على هذا الأصل العظيم، الذي به تستقيم الأحوال، ويترقَّى(١) به المسلمون إلى أعلى الكمال.

وهذا أيضًا من التوجيهات التي جاءت بها الشريعة إلى أمة الإسلام، أن يكونوا إخوة، متآلفين، متحابين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠] «كونوا عِبادَ اللهِ إخوانا» يحرصون على إزالة العداوات والضغائن، إزالة أسباب الفُرقة والتنازع والخصومة، بحيث تكون قلوبهم قلبًا واحدًا، وتكون آلامهم وآمالهم مشتركة، وهمومهم واحدة «مَثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو تَداعَى له سائرُ الجسد بالحُمّى والسَّهَرِ»، وساق جملة من الأدلة على ذلك، قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠]، وقال الله جلَّ وعلا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[آل عمران:١٠٣]، وقال: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ①﴾[الأنفال]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾[آل عمران:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾[آل عمران:١٠٣] فهذه آيات تضع أُسس عامة ينبغي أن يكون عليها أهل الإيمان، ألا وهي تحقيق التآخي والتحاب والتوادّ في الله وفي طاعة الله، وأن ينبذوا عنهم أسباب الفُرقة والشقاق والخلاف، وأن يعتصموا بحبل الله جميعًا وألا يتفرقوا، فإذا كانوا كذلك قويت شوكتهم وعظمت هيبتهم وسلِموا أيضًا من الفشل ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾[الأنفال:٤٦]، وكان ذلك قائدًا لهم إلى كل خيرٍ وعِزٍّ وفضيلة.

---

(١) النسخة التي طُبعت فيها هذه الرسالة مع مجموع مؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ وأشرف على طبعها مؤسسة الأميرة العنود الخيرية بلفظ «يرتقي» (٢٣/ ٤٣٥).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[الأنفال].

فأمر بطاعته وطاعة رسوله، ويدخل في ذلك جميع الدين، ونهىٰ عن التنازع الذي يوجب تفرق القلوب، وحدوث العداوات المحللة للمعنويات، وأمر بكثرة ذِكره المُعين علىٰ كل أمرٍ من الأمور، وبالصبر الذي يتوقف عليه كل أمر، وأمر بالإخلاص والصدق، ونهىٰ عمَّا يضاد ذلك من الرياء والفخر والبطر والمقاصد السيئة وإرادة إضلال الخلق.

ثم أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هاتين الآيتين، قوله جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[الأنفال]، فجمعت هاتان الآيتان جملة من التدابير والسياسات التي ينبغي أن يكون عليها أهل الإسلام، ولاسيما في مُلاقاة الأعداء ومُجابهتهم.

فبدأ أولًا بالأمر بطاعاته وطاعة رسوله ﷺ، وهٰذا يدخل فيه الدين كله، وهٰذا أساس ينطلق منه المؤمن في تعاملاته الداخلية والخارجية، ينطلق من قاعدة الدين وأساسه والتقرب إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يُرضيه، (فأمر بطاعته وطاعة رسوله، ويدخل في ذلك جميع الدين، ونهىٰ عن التنازع الذي يوجب تفرق القلوب، وحدوث العداوات المحللة للمعنويات) لأن المعنويات تَضْعُف إذا وجد التنازع، وهيبة الإسلام والمسلمين لدىٰ الأعداء أيضًا تقِل، فيكون ذلك ذريعة الفشل، قال: (وأمر بكثرة ذكره) قال: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأنفال:٤٥] قال: (وأمر بكثرة ذِكره المُعين علىٰ كل أمرٍ من الأمور، وبالصبر الذي يتوقف عليه كل أمر) قال: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[الأنفال]، قال: (وأمر بالإخلاص والصدق، ونهىٰ عمَّا يضاد ذلك من الرياء والفخر والبطر والمقاصد السيئة وإرادة إضلال الخلق) وهٰذا أخذه من قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾[الأنفال:٤٧] فالآية فيها الأمر بالإخلاص، والصدق مع الله، والحذر من الرياء والبَطَر، وقصد وإرادة إضلال الناس وصدِّهم عن سبيل الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠] فأمر بإعداد من المُستطاع من القوة، فيشمل القوة السياسية والعقلية، والصناعات، وإعداد الأسلحة، وجميع ما يتقوىٰ به علىٰ الأعداء، وما به يُرهبونهم، وهٰذا يدخل فيه جميع ما حدث ويحدث من النظم الحربية، والفنون العسكرية، والأسلحة المتنوعة، والحصون والوقايات من شرور الأعداء، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[النساء:٧١].

ولكل وقت ومكان من هٰذه الأمور ما يُناسب ذلك، فانظر كيف كانت هٰذه التعاليم الشرعية هي السبب الوحيد والطريقة المُثلىٰ لسلوك أقوىٰ السياسات الداخلية والخارجية، وأن الكمال والصلاح بالاهتداء بها، والاسترشاد بأصولها وفروعها، وأن النقص الحاصل والنقص المتوقع إنما يكون بإهمالها وعدم العناية بها.

هٰذه أيضًا أمور مُستمدة ومأخوذة من قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] وهٰذا أمر مُوجَّه إلىٰ أمة الإسلام، وهو شامل إلىٰ هٰذه المعاني العديدة، إعداد المستطاع من القوة سواء السياسية أو العقلية أو الصناعية أو غير ذلك، فهٰذا أمر مطلوب من أمة الإسلام أن يحققوه ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠] ، وإعداد القوة لا يكون الأمر في هٰذا متروكًا لأفراد الناس فتشيع الفوضىٰ ويشيع البغي والعدوان والظلم والتجنِّي علىٰ الآخرين، وإنما هٰذا أمرٌ مُوكل إلىٰ ولاة الأمر في سياسات الدول، والاستعداد للأعداء، وتهيئة العُدَّة لهم، وتنوع الأمور التي تكون بها قوة الإسلام، وقوة أمة الإسلام، بما آتاهم الله ﷻ من علم وفهم وبصيرة ودراية بكتاب الله ﷻ وكتاب الله يهدي للتي هي أقوم في كل أمرٍ وكل جانب من الجوانب، فيُستفاد من هٰذه الآية فوائد عظيمة مأخوذة من الأمر بإعداد القوة، فيتناول ذلك القوة العقلية، القوة في الصناعات، القوة في التدابير، القوة في ترتيب الأمور، القوة في وحدة الكلمة وجمع الصف والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، في كل هٰذه المعاني يُطلب تحقيقها فيما وجَّه الله جلَّ وعلا وأرشد إليه في هٰذه الآية الكريمة.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن السياسة الشرعية أن الله أرشد العباد إلىٰ قيام مصالحهم الكُلية بأن يتولىٰ كل نوع منها طائفة تتصدىٰ للإحاطة علمًا بحقيقتها وما تتوقف عليه، وما به تتم وتكمُل، وتبذل جهدها واجتهادها في ترقيتها بحسب الإمكان قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[التوبة].

ولا شك أن القيام بالمصالح العامة علىٰ هٰذا الوجه الذي أرشد الله إليه هو السبب الوحيد للكمال الديني والدنيوي، كما هو مشاهد يعرفه كل أحد، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥]. وهٰذا يشمل دعوة المسلمين الذين حصل منهم إخلال ببعض أمور الدين، ويشمل دعوة الكفار، الأولون يُدعون إلىٰ تكميل دينهم، والآخرون يدعون إلىٰ الدخول في دين الإسلام الذي به صلاح البشر، وتكون هٰذه الدعوة بالحكمة التي هي سلوك أقرب طريق وأنجح وسيلة يحصل بها تحصيل الخير أو تكميله، وإزالة الشر أو تقليله، بحسب الزمان والمكان، وبحسب الأشخاص والأحوال والتطورات.

وكذلك بالموعظة الحسنة، والموعظة بيان وتوضيح المنافع والمضار، مع ذكر ما يترتب علىٰ المنافع من الثمرات النافعة عاجلًا وآجلًا، وما يقترن بالمضار من الشرور عاجلًا وآجلًا، ووصفها الله بأنها موعظة حسنة لأنها في(١) نفسها حسنة وطريقها كذلك، وذلك بالرفق واللين والحلم والصبر وتصريف أساليب الدعوة.

وكذلك إذا احتيج في الدعوة إلىٰ مجادلة لإقناع المدعو، فلتكن المجادلة بالتي هي أحسن؛ يُدعىٰ المجادل إلىٰ الحق، ويُبين محاسن الحق ومضار ضده، ويجاب عمَّا يعترضُ به الخصم من الشبهات، كل ذلك بكلام لطيف، وأدب حسن، لا بعنف وغلظة، أو مُخاشنة أو مشاتمة، فإن ضرر ذلك عظيم، قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾[آل عمران:١٥٩]، ولنقتصر علىٰ هٰذا الأنموذج، فإنه يحصل به المقصود، والله أعلم وصلىٰ الله علىٰ محمدٍ وسلم.

حُرر في ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٧٥

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (ومن السياسة الشرعية أن الله أرشد العباد إلىٰ قيام مصالحهم الكُلية بأن يتولىٰ كل نوع منها طائفة) لأن مقدرة الناس متفاوتة، وكلٌّ أقدره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومكَّنه من مجال من المجالات، فلا يُطلب من الجميع أن يكونوا كلهم في مجالٍ واحد، يعني لا يطلب من الأمة أن تكون كلها علماء

(١) النسخة التي طُبعت فيها هذه الرسالة مع مجموع مؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأشرف علىٰ طبعها مؤسسة الأميرة العنود الخيرية بلفظ «لأنها نفسها حسنة» (٢٣/ ٤٣٦) أي بدون حرف «في».

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

بالشريعة، أو كلها مثلًا في صناعة من الصناعات، أو مهنة من المهن، وإنما في كل مجال ينتدب إليه أفراد بحسب ما آتىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الشخص من قدرة وميول، يُطلب من الجميع أن تكون أمور الدين المعلومة منه بالضرورة معلومة عند الجميع، ثم يذهب كلٌّ في مجاله، حتىٰ في تربية النشء، الناشئ ينشأ وله ميول، هٰذا له ميول في الصناعة، وهٰذا له ميول في التجارة، وهٰذا له ميول في الفلاحة، وهٰذا له ميول في العلم والفقه، ولهٰذا ابن القيم رحمة الله عليه في كتابه «تحفة الودود في أحكام المولود» ذكر أن من مهام المُربِّي أن ينظر ميولات الناشئة، ولا يُلزم الجميع في ميول معين أو جهة معينة وإنما يُنظر إلىٰ الميولات، وكلٌّ يوجَّه إلىٰ الميول النافع الذي هو مُتوجِّه إليه، من يميل إلىٰ الفلاحة يُترك في هٰذا الشأن، الأمة تحتاج إليه، إلىٰ الصناعة أيضًا الأمة تحتاج إليه، إلىٰ الطب الأمة تحتاج إليه، كلٌّ والميول الذي يحتاج إليه ويكون فيه منفعة للأمة، لكن الجميع يُنشَّأون علىٰ الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، بحيث يمشي في حياته مُسلمًا علىٰ بصيرة بإسلامه ودينه، عارفًا بأركان الإسلام وواجبات الدين، عارفًا بالمحرمات والمنهيات ممتثل الأمر مجتنب النهي، ثم يمضي في حياته في المجال الذي فتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه به، ولهٰذا نجد النصوص تُوجِّه إلىٰ هٰذا، أورد مثلًا قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران:١٠٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[التوبة:١٢٢].

قال: (ولا شك أن القيام بالمصالح العامة علىٰ هٰذا الوجه الذي أرشد الله إليه هو السبب الوحيد للكمال الديني والدنيوي، كما هو مشاهد يعرفه كل أحد) يعني من الآيات التي فيها حل هٰذه المشكلات التي تتعلق بالسياسة الداخلية والخارجية قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥].

وهٰذه الآية تشمل دعوة المسلمين الذين عندهم إخلال ببعض أمور الدين، ودعوة الكفار ليست خاصة بالكفار؛ وإنما الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن تكون للمسلم وتكون أيضًا لغير المسلم، المسلم المُقصِّر يحتاج أن يُدعىٰ، والكافر يحتاج أن يُدعىٰ.

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ذلك: (الأولون يُدعون إلىٰ تكميل دينهم) يعني أهل الإسلام الذين عندهم نقص في الدين يُدعىٰ من أجل أن يُكمِّل دينه (والآخِرون) وهم الكفار (يُدعون إلىٰ الدخول في هٰذا الدين) فقوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يشمل المؤمن ناقص الإيمان، وضعيف الدين يُدعىٰ ليكمِّل دينه، ويشمل الكافر يُدعىٰ ليدخل في هٰذا الدين العظيم.

قال: (وتكون هٰذه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبالمجادلة بالتي هي أحسن) وهٰذه أمور ثلاثة جمعتها الآية، ويُسمِّيها أهل العلم «مراتب الدعوة بحسب حال المدعوين» لأن من الأمور التي تُطلب من الداعية: أن ينظر في حال المدعو، فبعض المدعوين يحتاج إلىٰ الحكمة، وبعضهم يحتاج إلىٰ

الموعظة، وبعضهم يحتاج إلىٰ المجادلة بالتي هي أحسن، فكلٌّ يُدعىٰ بحسب حاله، فالآية جمعت مراتب الدعوة بالنظر إلىٰ حال المدعوِّين.

المرتبة الأولى: **الدعوة بالحكمة**، قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريفها: (هي سلوك أقرب طريق وأنجح وسيلة يحصل بها تحصيل الخير و تكميله) لأن الحكمة وضع الأمور مواضعها، فيُنظر في أقرب طريقة وأقرب سبيل تُقرِّب لهٰذا الرجل الحق وتُقرِّبه إلىٰ الهداية (تحصيل الخير وتكميله وإزالة الشر وتقليله بحسب الإمكان وبحسب الأشخاص والأحوال).

المرتبة الثانية: **الموعظة الحسنة**، قال: (والموعظة بيان وتوضيح المنافع والمضار، مع ذكر ما يترتب علىٰ المنافع من الثمرات النافعة عاجلًا وآجلًا، وما يقترن بالمضار من الشرور عاجلًا وآجلًا) الموعظة هي: أن يُذكر الخير مع الترغيب، ويُذكر الشر مع الترهيب، هٰذه تسمىٰ وعظ، الوعظ هو أن تذكر الخير مع ذكر المرغبات؛ تذكر الثواب والأجر، وأيضًا تحذر من الشر مع المُرهِّبات؛ تذكر العقوبات، فإذا ذكرت في كلامك وفي نُصحك الثواب والعقاب أصبحت هٰذه موعظة، فالموعظة: هي النُصح بذكر الثواب والعقاب، الثواب للأعمال المطلوب فعلها، والعقاب للأفعال المطلوب تركها، هٰذا تسمىٰ وعظ. تسمىٰ النصيحة وعظًا إذا كانت مصحوبةً بترغيب وترهيب، قال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾.

المرتبة الثالثة: **المجادلة بالتي هي أحسن إذا احتيج إلىٰ ذلك**، لا يُبدأ بالمجادلة، وإنما المجادلة تكون بالتي هي أحسن إذا احتيج إليها، إذا كان من يُدعىٰ مُحتاج إلىٰ أن يجادل، قال: (إذا احتيج في الدعوة إلىٰ مجادلة لإقناع المدعو) يعني عنده شبهات، إذا كان عند المدعو شبهات تجول في خاطره يُجادل بالتي هي أحسن حتىٰ تُكشف هٰذه الشبهات، وتزال عنه، قال: (فلتكن المجادلة بالتي هي أحسن؛ يُدعىٰ المجادل إلىٰ الحق، ويُبين محاسن الحق ومضار ضده، ويجاب عمَّا يعترضُ به الخصم من الشبهات، كل ذلك بكلام لطيف، وأدب حسن) لأن الله قال: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] (لا بعنف وغلظة، أو مُخاشنة أو مشاتمة، فإن ضرر ذلك عظيم)، وبهٰذا ندرك أيضًا خطورة الأمر بين بعض الشباب وبعض طلاب العلم عندما يتجادلون في مسألة فينتصر أحدهما لقول وينتصر الآخر إلىٰ قول آخر، ويكون الحديث بينهما فيه مخاشنة، فيه خشونة، فيه غلظة في الحديث، فيه تسفيه، فيه طعن، قد يصل إلىٰ السب أو نحو ذلك، هٰذا غير مطلوب، المجادلة تكون بالتي هي أحسن مع المسلم ومع الكافر، لأن الهدف وصول الجميع إلىٰ الحق، وهداية الكافر إلىٰ الحق ودلالته إليه، فالمقام لا يحتاج إلىٰ مخاشنة، المخاشنة وجودها في مثل هٰذا الموضع تنفِّر وتزرع العداوات وتنشر البغضاء وتكون من عمل الشيطان، ولهٰذا تكون المجادلة كما أمر الله ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، قال الشيخ: (فإن ضرر ذلك عظيم) يعني المشاتمة والمخاشنة والغِلظة ونحو ذلك، هٰذه

ضررها عظيم، لا ثمرة من ورائها، وضررها عظيم، تنشر العداوات، تُوجد البغضاء بين الإخوان، تُوجد في القلوب الإحَن، وتثير فُرقة بين الإخوان، يترتب عليها مضار لا تُحمد عُقباها، ولهٰذا إذا احتيج إلىٰ المجادلة فإنها تكون بالتي هي أحسن كما أمر الله ﷻ.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩] وهٰذا يُفيد أنَّ المسلم مُطالب أن يكون بهٰذه الصفة، أن يكون رحيمًا، أن يكون رفيقًا، أن يكون لينًا، أن يكون ودودًا، حسن التعامل، لطيف المعاشرة، إذا كان بهٰذه الصفة أثمر حديثه وأثمر نصحه ودعوته، بخلاف ما إذا كان فيه غلظة وشدة وقسوة وفضاضة في الحديث؛ فإن هٰذا يؤدي إلىٰ انفضاض الناس من حوله وعدم قبولهم لكلامه وحديثه.

ولما كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقصده بهٰذا الكتاب التمثيل ختم بقوله: (ولنقتصر علىٰ هٰذا الأنموذج) مُراده أنه لم يقصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه بسط المسألة، وإنما ضرب أمثلة ونماذج، وهٰذا فيه تنبيه لطالب العلم، يعني هٰذه الرسالة يستفيد منها طالب العلم فائدة كبيرة جدًّا وهي: أن الإسلام يَحُل جميع المشاكل، وهٰذه نماذج لك وضعها الشيخ بين يديك كيف أن الإسلام حل مشكلة الدين، مشكلة العلم، مشكلة الفقر، مشكلة الغنىٰ، مشكلة الصحة، مشكلة المرض، مشكلة السياسات الداخلية والخارجية، كيف أن الإسلام جاء بالحلول لها، فإذًا إذا واجهتك مشكلة أُطلب حلها من الشرع بمراجعة النصوص علىٰ الطريقة التي عرضها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، فتُطالع النصوص والأدلة وكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، فتطلب من الكتاب والسنة الشفاء، تطلب من الكتاب والسنة الهداية، تطلب من الكتاب والسنة الحل للإشكال الذي عرض لك وتكون مُعوِّلًا عليهما، معتمدًا عليهما، مُحَكِّمًا لهما، راجعًا إليهما، طالبًا لحل مشكلتك من جتهما، فتسعد في دنياك وأُخراك.

قال: (ولنقتصر علىٰ هٰذا الأنموذج، فإنه يحصل به المقصود) المقصود أن نعرف وندرك أنَّ الإسلام فيه حلٌّ لجميع المشاكل.

ثم ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (والله أعلم وصلىٰ الله علىٰ محمد وسلم) قال: (حُرر في ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٧٥) والشيخ رحمة الله عليه توفي عام ١٣٧٦، وبهٰذا نعلم أن هٰذه الرسالة من أواخر مؤلفاته، ومن الرسائل التي جاءت في آخر حياته، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ في التأليف من وقت مبكر من عمره، وكتابه التفسير أيضًا بدأ به في وقت مبكر من عمره، يعني هٰذه الرسالة بعد كتاب التفسير بسنوات كثيرة جدًّا، فإذًا هٰذه عُصارة من عالم ناصح جاءت منه في آخر حياته رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع فيها هٰذه التوجيهات المُسدَّدة والإرشادات الحكيمة، التي بيّن من خلالها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنَّ الإسلام، هٰذا الدين العظيم، الدين المبارك، دين يحُل جميع المشاكل وما من مشكلةٍ تواجه الإنسان إلا وحلها موجود في الكتاب والسنة، فإذا كان أهلًا لاستخراج ذلك من الكتاب والسنة فعل، وإنْ لم يكن أهلًا لذلك سأل أهل العلم وأهل البصيرة، عملًا

بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل].

وختامًا نحمد الله الذي يسَّر لنا قراءة هٰذا الكتاب، والإفادة من مضامينه العظيمة، ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجزي مؤلفه خير الجزاء، وأن يرفع درجته في عليين، وأن يلحقنا جميعًا بالصالحين من عباده، وأن يتولانا بتوفيقه، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن يغفر لنا ذنبنا كُلَّه دِقَّه وجله أوله وآخره، سِرَّه وعلنه، وأن يصلح أحوالنا أجمعين، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا.

والله أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.